مختارات فصول ـ مختارات فصول ـ مختارات فصول

سعيد سالم

الممنوع والمسموح

الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
٢٠٠٢

مختارات فصول
سلسلة أدبية شهرية
قصص (١٣٥)

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. سمير سرحان

رئيس التحرير
سامى خشبة

مدير التحرير
حسن سرور

المشرف الفنى
صبرى عبدالواحد

الغلاف للفنان
يوسف شاكر

التـــائه

تعودت عمرى دخول المكان ووعت أعماقى تضاريسه ، أدخله متهيبا بحب يغمر قلبى وقداســة تشــع بينى وبين أبوابه العالية العريقة · يتهامس وقع خطواتى مع أرض مدخله فى تناغم شفاف يفيض رقــة وحنانا · ادخله وحدى أحيانا ، واحيانا بصحبة صديق عالم او اصــدقاء فنانين ، او بصحبة رفاق القلم والورق ، فليس بالمكان مكان لمعدة أو نصف سفلى لانسان ·

معمار أبوابه ونوافذه وغرفه وطرقاته مزخرف باحســاس طفل ولد مرة بروما ومرة بالأندلس ومرة بالأقصر ·· ومن تجتـاز قدماه خطوة فى هــذا المبنى العتيق يغسله الصفاء فتشف روحـه ولا يشعر أنه آدمى ذو جسد يأكل ويعاشر وينام ثم يموت ·

المكان مطهر من ادران العالم السفلى · لا يجرؤ على الاقتراب منه صاحب جســد أو صاحب موت · مضت سنواتى بأكملها وانـا عاجز عن الاتيان بكلمــة من قاموس لغتى أصف بها هــذا المبنى الأسطورى · اهو فندق عتيق ·· مرسم للفنــانين ·· بيت من بيوت العبادة ·· ناد للأدباء ·· اثر بشرى مخلد ·· أم هو الفناء فى صورة وجود كائن يخترق أشعة العين فى تحد أصيل ؟ !

كان الليل .. وكانت الأضواء خافتة . اقتربت من الباب الكبير وبصحبتي الدكتور جوزيف . كان معنا كاتب صحافي وروائي معاصر ذائع الصيت . عند الباب ران حولنا صمت الخشوع . دخلنا باحساس من يدخل محراب حب يتعبد في سراديبه . لم تكن وجهتنا محددة تماما ، فقط نجتاز الباب فتغمرنا السعادة !

فجأة وجدت نفسي وحيدا أحملق في ذهول . تكثف الصمت من حولي واخترق أذني بقسوة شديدة . بكل ما أملك من وعي رحت أبحث عن رفاقي . جبت مئات الغرف ولم أعثر عليهم . تصبب العرق على جبيني وتلاحقت أنفاسي وتتابعت ضربات قلبي من شدة الاجهاد . انتابني نوع عجيب من الخوف اذ كان ممتزجا بشيء من الاطمئنان غير المبرر ، وحين عجزت قدماي عن حملي توجهت الى احدى الغرف . خلعت بدلتي وارتديت ملابس نوم نظيفة كانت معلقة على مشجب . ارتميت على فراش وجدته مجهزا للنوم . غفوت ساعة أو بعض ساعة ثم صحوت لأعاود البحث عن أصدقائي ، فلم يكن أمامي الا أن أبحث عنهم .

اقتربت من قاعة كبرى كنت أعلم أنها مخصصة للاجتماعات . فتحت الباب بهدوء فوجدت عشرات الناس يتهامسون على ايقاع ثابت وأمامهم خطيب يقول كلاما مبهما لم أفهم منه حرفا واحدا . نظروا الي باحتقار مؤلم . لم أتراجع . امتزجت نظراتهم المستنكرة لوجودي بما يشبه الخوف منه . تشبثت قدماي بالأرض فتوقفوا عن الهمس وتوقف الخطيب عن الكلام . أمعنت النظر في وجوههم التي بدت لي غريبة الملامح ، وكأنني أرى نوعا جديدا من المخلوقات أتى به تطور الكائنات لأول مرة .

أشاحوا بوجوههم عني وقد امتزج الاستنكار بالخوف بالحقد بالغضب . شعرت أنني الغريب عن المكان وليسوا هم الدخلاء

عليه • كانت ملابسهم تفتقر الى الذوق السليم وكانت رائحة القاعة غير طيبة • لكن احساسا مشتركا لديهم بملكية المكان كان واضحا من طريقة جلوسهم وتهامسهم ، كما كان واضحا على ملامح وجوههم الغريبة •

تمنيت العثور على الدكتور جوزيف ليدلني بعلمه وفنه أهم الغرباء أم أنا ؟ •• فان كنت أنا الغريب وجب على الانسحاب معه لأنني أنتمي الى عالمه وهو ينتمي الى عالمي وعالمانا ينتميان الى عالم واحد • كم كان مهما أن يتواجد معي الصديق الصحافي ليسجل في فرصة سبق عظيمة بعضا من معالم هذا العالم الغامض المجهول الذي سيطر أصحابه على قاعة الاجتماعات فغمروها برائحة غير طيبة ، أما صديقنا الروائي فقد ضاعت منه فرصة تأمل لا تعوض •

اغلقت الباب • وقفت من خلفه حائرا • لعلهم استنكروا تطفلي عليهم بهذا المنظر المتخلف في ملابس النوم • شككت في هذا لأنني حين عدت الى الغرفة التي غفوت بها لم أجد بدلتي ، وانما وجدت حللا أخرى ذات ألوان متشابهة معلقة في نفس المكان • بحثت عنها في غرف أخرى فلم أجدها •

انتابني ذعر حقيقي حين تبين لي استحالة العثور على الرفاق أو البدلة • بدأت أجري في الطرقات بلا هدف • شعرت بجوع شديد • لم أجد أثرا لطعام في أي مكان • اتجهت الى الدور السفلي باحثا عن موظف الاستقبال أستنجد به من فزعي ومن الوجوه الغريبة التي سيطرت على القاعة ، ومن الجوع الذي أصابني فجأة •• والأصدقاء الذين اختفوا ، والبدلة التي فقدت •

وجدت مكانه فتاة رائعة الجمال • ابتسمت لى فكشفت عن أسنان طويلة مدببة اقشعر لرؤيتها بدنى • قالت سأذهب بنفسى معك لنبحث أولا عن البدلة •

صعدت الى الدور الثالث الذى لم أرتده من قبل الا قليــلا • اصطحبتنى الى غرفة صغيرة •

انتقت لى بدلة من داخل صوان كبير •

ـ تفضل • أليست هذه بدلتك ؟

ـ انها هى فعلا !!

استأذنتها لأنفرد بنفسى فأخلع البيجاما وأرتدى البدلة • قالت بثقــة :

ـ لا عليك • غير ملابسك وسأغير انا أيضا ملابسى •

لم تعرنى التفاتا وبدأت تخلع ملابسها حتى صارت عارية تماما• انكمشت على نفسى فى ركن بعيد • بدأت ترتدى ملابس نوم • بدأت أجرب البدلة وكان شكى فى محله • لم تكن بدلتى • كانت ضيقة تماما رغم تطابق القماش واللون والتفصيل • اكتشفت هذا بعد ان انصرفت الفتاة ولم يعد لها أثر •

تركت البدلة والبيجاما وخرجت من الغرفة أبحث عنها • تعثرت قدمى فى جهاز راديو صغير • رفعته وأدرت مفتاحه لأسمع صوتا صارم النبرات يقول بلهجة آمرة قاطعة :

ـ أستاذ سمير صادق • عليــك بمغادرة المبنى فورا قبل وصول الضيوف الأجانب •

صعقت حين سمعت اسمى يتردد فى الجهــاز • أدرت المفتاح الى محطة اخرى • سمعت نفس الصوت يقول :

ـ لا تبحث عن أى شيء ٠٠ غادر المكان كما أنت ٠٠ بملابسك الداخليـة فقط !

أدرت مفتاح المحطات مرة ثانية بأصابع مرتعشة ٠

ـ لو تماطلت فى الخروج ستجد نفسك عاريا ٠٠ حول ٠

تبينت انه جهاز لاسلكى ٠ أدرت مفتاح التحويل وقد جعلنى الغضب اتمالك نفسى ٠ قلت بثقة :

ـ أنا سمير صادق ٠ أستاذ بالمعهد العالى للموسيقا ٠ قرأت الف كتاب فى ٠٠٠

حدثت شوشرة مفاجئة بالجهاز حين مسنى بتيـار كهربائى عنيف ٠ القيت به الى الأرض وعدوت مسرعا الى الدور السـفلى ٠ توقفت فى منتصف الطريق حين تذكرت أن هنـاك مخلوقات بشرية غريبة مازالت كائنـة بالدور العلوى من نفس المبنى ٠ فـكرت بالرجوع اليهم لا لكى اذوب معهم فى همهماتهم الغبية ، بل لكى أطردهم بأية وسيلة فأعيد الى المكان طهره وقداسـته ٠ لكننى واحد رغم كونى حقيقيا ، فأين ذهب الدكتور جوزيف والكاتب الصحافى والكاتب الروائى ، ولـماذا تركانى وحدى ؟ !

توقفت مكانى ثم جلست منكمشـا ، فقد تسربت البرودة الى جسدى شبه العارى ، حين فوجئت بالفتاة تقف أمامى :

ـ أبشر فقد وجدت بدلتك الحقيقية ٠

ـ وأين هى ؟

ـ بالقاعـة ٠

ـ أيمكن أن تتفضلى باحضارها لى ؟

ـ بل ينبغى أن تدخل القاعة وتحضر الاجتماع أولا ٠

ـ كيف هذا والجهاز يقول ٠٠٠

ـ ما سمعته صحيح لكن لو أطعتنى فلن تكون معرضـا للطرد وستجد ملابسـك ٠

اقتربت منى الفتاة تحثنى على الصعود ٠ شعرت أن حيـاتى قاربت على الانتهاء ٠ واصلت عدوى الى الدور السفلى ٠ وجدت الباب الكبير مفتوحـا ٠ اندفعت الى الخـارج بلا وعى ٠ لم أكد أستعيد أنفاسى حتى حدث زلزال مروع أتى على المبنى بمن فيه فأصبح كومة من التراب ٠ نظرت حولى فى ذهول فوجدت أصدقائى وقد غمرتهم الأتربة بعيدا عن دائرة الزلزال المحدودة ٠ كانوا مثلى ذاهلين ٠ قال الدكتور بحنان شديد :

ـ أين كنت ؟ ٠٠ لقد كنا طول الوقت نبحث عنك ٠٠ وعن بعضنا البعض ٠

لم يكن هناك مبرر لمزيد من دهشة تنتابنى بعد أن دمر المبنى الحبيب أمام عينى ٠٠ سألت دكتور جوزيف :

ـ ما هذا الذى حدث ؟

انبعثت من حولنا ضحكات مجلجلة وقهقهات ساخرة ، كانوا ثلاثة رجـال غرباء يرتدون قبعات ، واحدة بيضاء والأخرى زرقاء والثالثة حمراء ٠ ظلوا يضحكون زمنـا طويلا وهم ينظرون الى المبنى المنهـار ٠٠ وعاودت سـؤالى للدكتور جوزيف متجـاهلا ضحكاتهم الاستفزازية :

ـ ما هذا الذى حدث ؟

قال بابتسامة حزينة وعيناه تذرفان الحسرة :

ـ ما حدث كان لابد أن يحدث ٠

مسـألة البطيـخ

سيداتى ، سادتى ٠٠ قبل ان تقرأوا قصتى لى رجاء ، هو ألا تأبهوا بالمقـاييس المنضبطة التى بثهـا النقاد فى عقولكم عبر السنوات ٠٠ استمروا فى القراءة ولا يشغلنكم التفكير فى التناقض الذى سيبرز بين واقعية القصة بمواقفها الثـلاثة وبين استحالة تواجدى مع الرجال الثلاثة فى آن واحد ٠ وذريعتى التى ارفعهـا أمامكم من الآن هى اننى حقيقة كنت معهم فى نفس الوقت ٠ وحقيقة لم أكن معهم ٠ أما كيف كان ذلك فهذا ما لست اعرفه ولا أريد ان أعرفه ، ولست أريد لأحد منكم أن يفكر الآن فى معرفتـه حتى تشوقه القصة فيقرؤها الى آخرها ٠٠ ولى فى النهاية وقفة معكم كى نناقش هذه المسألة ٠

***

● **محمد افندى أبو دومة :**

رأيته حاملا بطيخته ، عائدا لتوه من الديوان ٠ يبلل العرق شعر رأسه ٠ يسيل من فوديه ٠ يتساقط من جبينه على عينيه ٠ لم تكن بيده اليسرى جريدة يومية ٠ لم يكن لابسا نظـارة ٠ لم يكن سمينا مترهلا ٠ لم تكن حلته متسخة أو بالية ٠

الشمس كانت تصب جحيمها على الأرض • الحرص والتجهم كانا يؤكدان لى وانا أنظر الى وجهـه أننى أمام محمد أفنـدى ابو دومة الموظف • محمد أفندى ابو دومة وليس أحد غيره • عينـاه ترقبان اتجاهات الطريق الأربعة • لن يعبر قبل أن يشير عسكرى المرور الى المـارة أن يعبروا • أعطى العسـكرى الاشـارة • بقى محمد مترددا لفترة والناس يعبرون • بدا عليه الارتباك حين حاول التحرك • اصطدم بجسد كان يجاوره وكادت البطيخة أن تقع • تجاوز هلعه الشديد وهدأت ضربات قلبه حين تأكد أنها لم تقع وانها مازالت بعد بين يديه • الرجل الذى اصطدم به لم يعتذر بل عبر الطريق وابتعد عنه كثيرا ثم اختفى • صفارة العسكرى تجلجل• الاشارة حمراء •• يد العسكرى تنتصب الى أعلى • سيل العربات المجنون يبدأ فى التدفق دون انتظار • الناس أيضا كثيرون • كثيرون جدا • يريدون أن يوقعوا بطيخته •• والجبن القديم لا يؤكل مع الأولاد الخمسة وأمهم الا بالبطيخ •• واللامعقول أن تشم رائحـة الأدام بالشقة كل يوم • لن يسمح لأحد من هؤلاء الناس أن يخطف بطيخته أو أن يتسبب فى وقوعها منه • النظام المـالى المتقن الذى وضعته الزوجة المدبرة لا يسمح بأكثر من طبخة لحم كل أسبوعين وتدخين نصف علبة سجائر صغيرة كل يوم •

هذه العمارة الشاهقة تدر ظلا جميلا • توقف محمد أفندى امام عتبتها • أراح يده من البطيخة • فتح علبة سجائره واحصاها عددا • فكر فى اشعال سيجارة • أخرجها من العلبـة • بحث عن الكبريت فى جيب آخر وآخر • خـلال البحث لم يكن يفـكر فى صاحب العمارة مع أنه يعرف اسمه ويعرف مهنته الحقيقية • لم يكن يفكر فى كيفية حصـوله على الفائض من المـال الذى يبنى به الآن عمارته الثالثة • سقطت من جيبه ورقة بالية من فئة العشرة القروش • التقطها بسرعة • ولمـا وجد الكبريت أعاد السيجارة الى

العلبة وأعــاد الكبريت الى نفس الجيب ، ثم حمل بطيخته وواصل السير • كان على يقين من أن القوة المغناطيسية الجبارة التى تشده صباح كل يوم من فراشــه ــ الذى قليلا بالليل ما يئز ــ الى مكتبه بالديوان ، هى ذات القوة التى تشده ظهر كل يوم من مكتبه بالديوان لتقذف به وسط ستة آدميين ينتظرون عودته اليهم • يتوقعونها • يثقون فى حدوثها • يطمئنون الى انها مسألة لا تحتاج الى وقفة أو تأمل • فى تلافيف أمخــاخهم يرسمون للمستقبل صورا عديدة بعضها ملون • بعضها أبيض وأســود • بعضها رمادى • بعضها بغير ملامح على الاطلاق •

راعه أن يكون أسيرا لتلك القوى اليقينية ، فهو يذهب بالفعل ليعود ، ويعود كل يوم ليذهب فى اليوم التالى ، والنظام المــالى الصارم ، والمكتب قابع بالديوان ، وعلبة السجائر يجب أن تبقى ليومين ، ولايمكن الدخول فى تلافيف الأمخــاخ الستة لالقاء نظرة على ما بها من صور وابداء الراى فيها بحكم الخبرة والمعرفة وتكرار الذهــاب والعودة من مكان ثابت الى مكان ثابت آخر منذ آلاف الأيــام •

راعه أن يكون أسيرا لتلك القوى اليقينية الواثقة • ألقى بنظرة على البطيخة • كان قد قطع بها أكثر من ثلثى المسافة الى بيته بعد أن دفع تسعين قرشــا ثمنا لها • الاختبار الآن صعب ، لكن العقاب حق • قرر محمد أفندى أبو دومة معاقبة تلك القوى بالافلات من حصارها كخطوة أولى • بعد اتخــاذ القرار وقبل التفكير فى كيفية تنفيذه فكر فيما يسمونه بالحظ • طال تفكيره • ألقى بنظرة خلفية على العمــارة الشاهقة التى بدأت تصغر قليلا لبعد المسافــة • الآن يذكر اسم صاحبها • هذا الرجل قد جاء الى القــاهرة حافى القدمين • بدأ بعربة لمد عليهــا طماطم وبرتقــال • ثم دكان • ثم

تجارة جملة • ثم عمـارات هذه احداها • لكن هناك من قالوا انه اتجر فى المخدرات لفترة قطعت هذا التسلسل • هذا الرجل لا يخضع لتلك القوى التى يخضـع لها محمد أفندى أبو دومة الذى قرر منذ قليل أن يتحداها ، لكن يبدو ان قراره لم يكن حاسما ، فالبيت قد اقترب ، والنظام المـالى صارم ، والجبن القديم به نسبة عالية جدا من الملح ، والبطيخة ثمنها تسعون قرشا ، والأولاد ليس لهم ذنب فى كونهم يحملون رءوسـا فوق أكتـافهم بها أمخـاخ بها تلافيف ، والتلافيف على صلة وثيقة بأجهزتهم العصبية ، وأجهزتهم العصبيـة على صلة وثيقة بأمنياتهم المحتضرة •

هل يلغى قرار التحدى أو يعتبره نافذا فيفعل شيئا يحيله الى أمر واقع لا رجعـة فيه ؟ •• هذا هو السؤال الذى كان يشغل باله وهو يطرق باب شقته فتفتح له زوجته • تندهش لعلامات الحرص والتجهم والحيرة البادية على وجهـه • تنظر اليه طويلا فتسقط البطيخة من يده •• وعلى الأرض يتنـاثر قلبهـا الأبيض الشبيه لونه بلون اللفت •

***

● « الأسطى » عبد المتعال :

فى نفس اللحظة رأيتـه يحمل البطيخـة ، عائـدا لتوه من « الورشة » التى يعمل بها • سعيد هو برضاء صاحب الورشـة عنه • منذ أسابيع أقرضه مبلغا كبيرا من المـال يخصم على أقساط من راتبه الشهرى • أنقذه من ورطة محققة فالشكر لله والحمد له • تزوجت ابنته وزفت الى عريسها وكان الحفل طيبا ومستورا • منذ ساعات كان يعـاون صـاحب الورشـة فى احصـاء « بواكى » البنكنوت •

ـ كم يا عبد المتعال ؟

ـ سـبعه ٠

ـ كم يا عبد المتعال ؟

ـ تسعة عشر ٠

ـ ضعها فى هذا الدرج ٠

ـ حـاضر ٠

ـ ناولنى سلسلة المفاتيح ٠

ـ حـاضر ٠

وعندما أقفل صاحب الورشة الدرج المذكور ارتسمت ابتسامة عظيمة على وجه عبد المتعال وقال بحبور :

ـ الله يزيدك من نعيمه يا معلمى ٠

ولـما اتجه صاحب الورشة الى الخزانة ليحصى « البواكى » الأخرى استأذنه عبد المتعال ليصلى الظهر فأبدى صاحب الورشـة موافقة مصحوبة بابتسامة عطف واسعة ٠٠ انه يحبه حبا جما ، لاشك فى هذا ، لأن عبد المتعال حين فشل مرة فى تصنيع شكل هندسى دقيق من قطعة نحاسـية لم يعترض على قراره ٠ خصم ثمن القطعة من راتب عبد المتعال ٠ توقع منه صاحب الورشـة احتجاجا أو حتى تغيرا فى المعاملة ، لكن لم يحدث أن قال له عبد المتعال ان يده التى أفسدت هذه القطعة النحاسية الصغيرة هى نفس اليد التى صنعت له المئات من القطع الأخرى بفن واقتدار ٠ ان عبد المتعال يتمتع بشجاعة فائقة فى مواجهـة أى شىء ، فلو خطرت بباله هذه الفكرة لـما تردد فى نقلها بلسانه الى معلمه على الفور ٠ لكنها لم تخطر ٠

عبد المتعــال لا يهتم كثيرا بأن تكون معه نقود او أن يكون مفلسا ، مع أنه مسئول عن أسرة كبيرة كلها من البنات ٠٠ يقول لأمهن :

ــ خليها على الله ٠

ويقول لزملائه فى العمل ممن يحبون وفرة المــال :
ــ مالى أنا بالرزق وربنا موجود ؟

ويقول لنفسه :

ــ البنات رزقهن واسع ٠

فى طريقه لعبور الشارع مر أمامه صاحب الورشــة راكبــا عربته ٠ حياه عبد المتعــال بابتسامة عريضــة من فمه واشــارة متحمسة من يده التى لا تحمل البطيخــة ، ولمــا لم يرد صــاحب الورشة التحية تأكد عبد المتعال انه لم يره فعلا ، والا لحيــاه مثلما حياه تماما أو بتحية أحسن منها ، فما الذى يجعله لا يفعل هذا ؟ ٠٠ نعم ، ما الذى لا يجعله يفعل هذا ؟ ٠٠

وعندما وصل عبد المتعال الى بناته كانت السعادة تتقاطر على وجهه ٠ توقع ان يجدهن سعيدات مثله ٠ دهش عندما اصطدم بوجوه متباينة المعــانى ٠ وجه الزوجة جامد المعالم ٠٠ « الموت » ٠٠ وجه واحدة من بناته يوحى بالكدر ٠٠ « الفقر » ٠٠ وجه أخرى يوحى بالحزن ٠٠ « المستقبل » ٠٠ وجــه أخرى يستبد اليــأس بمعالمــه ٠٠ « لا فائدة » ٠٠

قال عبد المتعال لنفسه وهو يشق البطيخة :

ــ كله بأمره ٠

كانت انعكاسات الوجوه على مشاعره قاســية ٠ تذكر اشياء

كثيرة مؤلمة ، لكنه حين رأى قلب البطيخة القانى الاحمرار عاودته الابتسامة ولم يفكر فى شيء على الاطلاق ، فقد أذن لصلاة العصر ٠

***

● صفوت باشا :

بطيخات ثلاث ٠ وضعها السائق فى حقيبة العربة ثم عاد مسرعا الى عجلة القيادة ٠ الاحترام الشديد واجب ، فهو يقود عربة ابن باشا سابق ورئيس حالى لشركة استثمار مصرية أمريكية، كان صفوت باشا يفكر بجدية فى ظاهرة اهتمامه الشديد بالأكل وولعه الأشد بالتهام الفاكهة ٠ الحقيبة ممتلئة بأقفاص المانجو وأسبطة الموز ٠ لا بأس ٠ انها شهوة النفس المشروعة لما لذ وطاب من خيرات الله ٠

ـ ما هذا الزحام الشديد يا سيد ؟

ـ وقت خروج الموظفين يا سعادة الباشا ٠

ـ انهم يعطلون سير العربات بطريقة تثير الأعصاب ٠

ـ هذا صحيح ٠

ـ ولا يريدون ان يكفوا عن التناسل ٠

ـ سلواهم الوحيدة يا باشا ٠

ـ المفروض أن يذهبوا الى الصحراء ليعمروها ٠

ـ هذا سليم ٠

ـ وتتحول الصحراء الى مدن زراعية شاسعة ٠

ـ فيخف الضغط على المدينة يا سعادة الباشا ٠

— حينئـذ تمر عربتنـا بيسر فى الطـريق ويتوافر الطعـام لكل فم .

— خسارتك فى هذا البلد يا سعادة الباشا .

ويضحك صفوت من قلبه . يقهقه فى تواصـل سعيد ويضرب السائق على ظهره ملاطفة ، ثم تزداد موجـة القهقهة فيضربه على قفـاه .

عند مدخل « الفيلا » الكبيرة يفتح الحـارس الباب ويحمل بطيخة ، والسائق بطيختين .. يستدير صفوت باشا بوجه هاش باش ويقول للسائق :

— هات عنك واحدة يا سيد .

— العفو يا سعادة الباشا .

— هات يا ولد .. اسمع الكلام .

ويحمل صفوت باشا البطيخة . تستقبله ابنته . تضحك هى الأخرى بشدة حتى تكاد تسقط على السلم الرخامى اللامع . تسرع نحو أبيها قائلة :

— انتظر يا بابى .. سألتقط لك صورة .

تعود ومعها جريدة يومية وكاميرا . تضـع له الجريدة تحت ابطه وهو مستسلم لها . تفك رباطة عنقه وتبعثر هندامه عن عمد وهو غارق فى قهقهاته والبطيخة تتراقص على يده ولا تقع . تنفش بيدها الناعمة مجموعة الشعيرات الباقية فوق صلعته . تقول وهى تستعد لالتقاط الصورة .

— ألا تستطيع ان تكشر لحظة يا بابى ؟؟

***

سيداتى سادتى ٠٠ وفاء بعهدى أعود اليكم لمناقشة القضية لأننى واثق أنكم قرأتم القصة ٠ ولكن قبل أن أقول شيئا أود أن أسألكم ثلاثة أسئلة :

١ ــ ألستم معى فى أنكم كنتم نياما وأنتم تقرأون قصتى ؟

٢ ــ ألستم معى حين أدعوكم أن تكفوا عن النوم لتعاودوا قراءة هذه القصة من جديد ؟

٣ ــ لمـاذا تهتمون بقضية تواجدى فى ثلاثة أماكن ــ أو حتى مدن ــ متفرقة فى آن واحد ٠ ولا تهتمون بمسـألة البطيخ ؟ ان مسألة البطيخ يا سيدات ويا سادة مسألة خطيرة ٠٠ وحين أتكلم عن البطيخ فأنا لا أقصـد الأحمر منه أو الأقرع ٠ وانما أقصـده بكل صنوفـه ٠

ولو عرفتم الاجابة عن أسئلتى فلن تكونوا بحاجة الى معرفة سرى ٠٠

التلوث

فى الحلم قتلت بيدى مئات الصراصير والسحالى والثعابين · رأيت الشواطىء مهجورة والمدينة مظلمة وأمواج البحر تتصارع صراعها الأبدى المرهق · انمحق اللون الأخضر ولم تعد السماء زرقاء ولا الأرض بيضاء ولا الزهر ألوانا · ساد اللون الرمادى ولم أجد مالا أدفعه لطبيب خاص يسكن بالدور العلوى فى نفس مسكنى ·

صرخت نرجس ·· فذهبت بها الى مستشفى الفقراء ·

تحمل الريح وباء ، وتبخ المخلوقات سموما ، وتنفث المشاعر حقدا ، ويسود اللون الأصفر · فى الحلم سالت دماء ونهبت حقوق وانطفأت أضواء فعم الكون ظلام ذو لون داكن كريه · امتزجت الألوان الرمادية بالصفراء بالظلمة الداكنة فتلوثت كل الأماكن · واذا الملوثون هم أسياد الكون فلا جدوى من حلم أو حقيقة ·

وما دام الأمر كذلك فلابد أن أقتل الطبيب · سأزيد من نسبة اللون الأحمر فى فضاء التلوث اللانهائى الذى أشك فى انحصاره بهذه البقعة من الكون الكبير · حين تزيد نسبة اللون

الأحمر على نسبة الألوان الرمادية والصفراء والظلمة الداكنة ، فلن يكون هناك لون اســود ، وبذلك اساهم فى منع وقوع كارثة كبرى على بقعة من بقاع الأرض التى تدور حول نفسها .

اختطفت آلة حادة وهويت بها بكل اقتناع فوق رأس الطبيب. قبل أن تصــل الآلة الى هدفها ، وفى كسر من الثانيــة خطرت لى فكرة احتمال براءته . قد يكون أحد المرضين هو المســئول عن تلوث الجرح ، ولهذا قررت التراجع فى اللحظــة الأخيرة ، وكنت صادقا فى نيتى كل الصــدق لانقاذ حياته بنفس القدر حين قررت التخلص من حياته .

لكن المشهد كمــا رآه الناس وفسروه ــ وانــا ألتمس لهم العذر ــ كان يؤكد ان هنــاك محاولة اعتداء همجية من مجنون فقير تهجم على الطبيب المبجل بآلة حادة بغية قتله .

وهكذا اقتادونى الى القسم كمجرم عتيد ، واصبح مستقبلى ــ الذى لا أهتم به فى أحيان كثيرة ــ مهددا بالخطر .

الشهود متواجدون . الجريمة ثابتة الأركان . المجرم هو عبد العزيز ابو بكر العسكرى المتطوع سابقا ومحصــل الكهرباء حاليا ، والذى يعتبره بعض المخابيل فنانا تشكيليا . اداة الجريمة هى قضيب حديدى من أحد الأسرة المهشمة بالمستشفى ، ثم المجنى عليه وهو الطبيب المبجل .

ولــا كان من المؤكد عندى أن هنــاك اشياء كثيرة لا معنى لها ، وأن خاصية الفهم عند بنى الانســان تكاد تكون مشتركة ،

فلابد ان بعض ما لا أفهمه لا يفهمه الآخرون مثلى . انا مثلا لم أفهم لــاذا قال الطبيب للضابط بعجرفة شديدة :

– هـذا المخـلوق الشبيـه بالحشرة كـاد يقتلنى لولا أن امسكوا به .

قلت بسرعة :

– لم يمسك بى أحد ، أنا الذى تراجعت عن قرارى .

قال الضابط :

– اسـكت .

ولم أنطق . ولم أفهم أيضا لمـاذا نظر الضـابط الى الطبيب نظرة عدوانية ثم قال له :

– انه انسان مثلك تماما وليس حشرة ! .

ثم بلباقة غير مفهومة استطاع الضـابط أن يبسط المسـألة ويوازنها ، وأن يقنع الطبيب بالتنازل عن بلاغه ، ثم خرجت من القسم وانـا ابكى نرجس بحرقـة . أهملوها . تركوا جرحهـا يتلوث . لم أستطع أن أحول دون وقوع كارثة كبرى على بقعـة من بقاع الأرض ، والأرض تدور حول نفسها وأنا أشـك فى انحصار التلوث بتلك البقعة دونا عن بقية الكون الكبير .

تلوث الكون . ماتت نرجس .. حلما وحقيقة .

الوقـــــور

تنبهت فجـأة الى سخافة رحلة العمر الطويلة حين تنتهى الى مقعد جلدى أمام مكتب عليه لافتة صغيرة مكتوب عليهـا بالخط الجميـل : « رئيس مجلس الادارة » ٠٠ عشرات الأعوام ومئات الأمانى وآلاف الأحلام وحكايات الحب والطموح والآمال الورديـة وفتوة الشـباب وجنون الفن وشطحات الخيال والتنقل بين مدن العالم والتهام مئات الكتب وآلاف المجـلات والجرائد والسهر حتى الصباح للحصول على الشهادة الجامعية أحيانا ولاستحلاب المتع البريئة وغير البريئة أحيانا أخرى ٠

فجأة تشير المرآة الى غزارة الشعر الأبيض على رأس مثقل بالهموم والمسئوليات ، وتشير نظرات السكرتيرة الشابة الى أنها تقف فى حضرة رجـل وقور ــ أو لابد أن يكون وقورا ــ فى عمر أبيها ، بينما ينبض صـدرها الناهد بدفقات الحياة التى ولت منه دون استئذان وتركته وقورا رغم أنفه ضاغطا فى أعماقه رغبة جامحة فى الانطلاق من أسر الزمان ٠

فجـأة وجدت نفسى أقف على الخط النارى الفاصـل بين الكهولة والشيخوخة فلم أصدق فى البداية ، وحتى عندما اصطدمت بالمرآة فاننى صممت على الرفض والانكار ٠ قوانين الطبيعة ليست

لعبة يستهان بها يا رجل ، ولكنك تعلم كم رائعة هى الحياة حين تتعامل معها بحب فى أى زمان ٠

تستعرض فى تأن قائمة الأحلام الطويلة التى عشت عمرك تعمل على تحقيقها فتدرك انك لم تحقق منها الا القليل ٠ كان عناد الأيام أقوى من عنادك اذ فرضت عليك أحلاما لم تسع يوما الى تحقيقها ، ولكنك لم ترفضها حين غدت أمرا واقعا لا يواجه الا بالقبول الاضطرارى ، فما لا يدرك كله لا يترك كله ٠

لا وقت للألم ولا مكابرة أمام القدر ٠ هذا صحيح ، لكن فى الوقت متسعا لم يزل ، وللنفس حق ينبغى أن ينال الآن خالصا لها دون مشاركة فيه لمخلوق سواك ٠ الأسرة نالت حقها منك والعمل كذلك ، أما أنت فماذا نلت من أعوامك التى ناهزت الخمسين ؟ !

❋ ❋ ❋

جلس الى مكتبه يتأمله فى هدوء ٠ الغرفة الأنيقة والأثاث الفاخر والمنصب الذى يتوهمون انه عظيم بالقياس الى ما أسموه بصغر سنه ٠ كلها أشياء لا تهتز لها شعرة من جسده ، أما ذلك الاحترام الشديد الذى يلقاه من الجميع فانه لا يعنى عنده شيئا على الاطلاق ، فالفرعون عند المصريين هو الاله وهو الحاكم وهو رب الأسرة ورب العمل ، والرهبة أمامه واجبة وكذلك الاحترام والخوف والانحناء ٠

راح يتأمل المقعد الذى جلس عليه منذ عدة أشهر فقط وكأنه يودعه لليوم الأخير ٠ انتهى عهد العمل وبدأ عهد الحياة وليكن ما يكون ٠ لن يدع للملل فرصة بعد اليوم ليقتحم دائرة وجدانه المتأجج بالرغبة فى معاودة الحياة ٠٠ أما الزمان فعلى الله ، وأما المقارنة بالغير من الزملاء فلا تنفتح أبوابها الا على جحيم ٠

اللعنة على هذا الوقار الكريه ، وعلى الوظيفة بكل متعلقاتها من عمل روتينى كئيب ووجوه شاحبة يراها كل يوم وأدمغة تخلو من التفكير وارواح تفتقر الى الحيـاة وجنيهات ضعيفة يتقاضاها فى نهاية كل شهر ٠ لا ثروة تحققت ولا سلطة ولا مجد ، والحياة فى هذا البلد تكاد تستحيل دون سلطة أو ثروة ٠ أما المجد فما هو ، وكيف الاستسلام للموت بهذه الخسة ؟ !

تهيأ لمغادرة مكتبه للمرة الأخيرة فى حياته ٠ أنبىء بضيف ينتظره فأمر بدخوله فدخل ٠ الصلعة تبرق ٠ النظـارة الطبيـة سميكة للغاية ٠ الحلة قديمة والظهر مقوس والحذاء مغبر والنظرة بائسة ، وزميله فى الجامعة يقف أمامه متوجسـا غارقا فى الارتبـاك والخجل بلا مبرر ٠ لم يره منذ ربع قرن أو يزيد ٠

ـ محمود مرسى ؟

ـ نعم انـا هو ٠

ـ أيها العجوز هل انت زميل دفعتى أم عمى الأكبر ؟ !

ـ لا تعجب من أفاعيل الزمن وسوء الحظ ٠

تعانقا بحب عظيم وتعالت سحب الدخان فى أركان الغرفـة وشربا القهوة ، وتكلما بشبق شديد لوصل المـاضى بالحاضر ٠

ـ اذن فأنت لم تحصل بعد حتى على درجة مدير ادارة !

ـ نعم ٠٠ مازلت أعمل بدرجة رئيس قسم ٠

ـ قل لى بصراحة ٠ كم بلغت من العمر ؟

ـ أشهر قليلة واصبح فى الخمسين ٠

ـ اى انك تكبرنى بثلاثة اعوام على وجه التقريب ٠

– هذا ما أذكره منذ أيام الجامعة ٠

– لعلك قصرت فى عملك أو فى المطالبـة بحقوقك منذ زمن طويـل ٠

– بل بذلت ما بوسعى عملا ومطالبة ٠

– يا لسوء الحظ الغريب ٠٠ وماذا عن حالتك المـادية ؟

– مستورة والحمد لله ٠

– هل لديك دخل خارجى غير راتبك الشهرى ؟

– لا ٠٠ راتبى رغم تواضعه أدبر به أمرى قدر المستطاع ٠

– عموما ٠٠ أنا فى خدمتك ٠

– لم أحضر الا لتهنئتك بمنصبك الجديد ٠

شعرت بقوة اسفنجية خارقـة تمتص تمردى العنيف الذى اجتاحنى منذ لحظات ٠ أى بؤس هذا الذى يمتزج بقناعة فذة فى نفس هذا الزميل ذى الأبناء الأربعة ؟ ! ٠٠ استطال الحديث عن الزملاء الذين ماتوا وعن الزميل الذى سـجن فى قضية رشـوة والآخر الذى قتل فى الحرب والذى قتل فى حادثة بالطريق والذى أثرى بالحـلال والذى أثرى من حرام ، والزميـلة التى تخرجت وهاجرت الى كندا والتى لم تتزوج حتى الآن وانما حصلت على أكثر من دكتوراه ٠٠ وماذا يعنى أن أكون رئيسـا لمجلس ادارة مؤسسـة بمجتمـع مديون دون أن أبلغ الخمسـين أو الأربعـين أو السـتين ؟ !

دخلت السكرتيرة فلم اشعر أننى وقور رغم انفى حين عاملتها مثلما أعامل ابنتى تماما ٠ من خلفها دخل زميل آخر يعمل معى فى نفس المؤسسة ولكن بدرجـة مدير ادارة فقط ، رغم انه يكبرنا فى

السن معا · انتظرت حتى تتم المفاجاة ولكنهـا لم تتم · خرجت السكرتيرة وتصافح الزميلان القديمان امامى دون ان يعرف أحدهما الآخـر ·

ــ عثمان منيب ·· الا تعرفه ؟ !

ــ غير معقول ·

ــ ألم تعرفه أنت الآخر ؟ !

ــ غير معقول ·

❊ ❊ ❊

جلس زملاء الجامعة الثلاثة والزمن رابعهم · فأين المعقول فى هذه الحياة ؟ ·· محمود مرسى وقد أعلن هزيمته بلا حياء ، وعثمان منيب يقهقه بنفس البـلاهة التى عرفت عنه منذ أيام التلمذة · سـأل محمود عن الزميلة التى تزوج منهـا عثمـان بعد التخرج بعامين ، معبرا عن انبهاره الساذج بقصـة الحب العظيمة التى ربطت بين قلبيهما وكانت موضـع اعجاب الجميع وحسـدهم · ضحك عثمان ضحكة مستحيلة التفسير وقال :

ــ خانتنى بعد عام من الزواج فطلقتها ·

غرق محمود مرسى فى هزيمته أكثر وسأله :

ــ الم تتزوج مرة ثانية ؟

ــ بل تزوجت بقروية جاهلة من بلدتنا وأنجبت منها البنين والبنـات ·

أطلق رئيس مجلس الادارة نكتة ماجنة تعليقا على ما سمعه فانفتح الباب على مصراعيـه لدخول زمان ولى واندثر وتعـالت

بالغرفة أصوات منكرة واضيىء المصباح الأحمر وقال لهما ان من ينظر الى الحيـاة بجدية واحترام فمن الأفضل له أن يموت ٠

كلما دخلت السـكرتيرة الشابة وخرجت ، عـاود النظر في مسألة وقاره ، وفى وجهى زميليه القديمين ، وفى سنواته التى اقتربت من الخمسين ٠ وفجأة سأل عثمان زميله محمود ببراءة فاضحة :

ـ لمـاذا لا تنتقل الى شركتنا بنفس المؤسسة فتضمن الترقية والسـند ؟ !

انصبت نظرات العيون الأربع على وجه الرئيس ٠٠ كان قد استعاد وقاره فجـأة ٠

❋ ❋ ❋

راسى ثقيلة . محتوياتها المبعثرة بحاجة لا تقبل التأجيل الى اعادة ترتيب . تراكمت بداخلهـا نفايات السنين ومعضلاتها التى تحدت الزمن أن يصـل بشأنها الى قرار . كلما عدت من سفرة خارج بلادى أعتقد أنه آن الأوان لتصفية تلك التراكمات وتحليلها وتقسيمها واستبعاد ما لا يلزم منها واعادة النظر فى استبقاء ما قد يلزم . فى البداية أبدو متحمسا ويخيل الى أننى مهيأ تماما لانجاز تلك الخطوة ، وشيئا فشيئا تستولى على كيانى المترهل حالة من الخدر والاسترخاء ، فتهبط عزيمتى وتتضـاءل فى نظرى أهميـة ما كنت مقدما عليه ، وبمرور الوقت أنساه .

حين عدت هذه المرة من سفرتى الأخيرة علمت أنه قد مات .. وكنت قد عقدت العزم ألا أفوت الفرصـة على راسى مهما كانت الأسباب ، والا حق لها أن تتمرد على وتتركنى الى غير رجعة .. ولابد أن أذكر أنها سبق أن أنذرتنى بذلك من قبل حين اختفت فجأة ثم عادت بعد ساعات قليلة الى مكانها من جديد . يومها سألت « بادى » كم عمره فأجاب دون اكتراث :

ـ لا أعـرف .

ـ فى أى عام التحقت بخدمة المصلحة ؟

ـ لا أذكـر ٠

تركنى حاملا مقشته المهترئة يكنس بها الطرقات بهمة يحسد عليها واخلاص ولى زمانه ٠ تحتوى راســه على أشياء قليلة يسهل ترتيبها ولكنه يسافر بها بين الحين والآخر الى عوالم مجهولة يعود منها محملا بالطمأنينة الأبدية والسكينة الخالصة ٠

خمسة واربعون عاما من الأحمــال تنوء بها رأسى ٠ حلمت وتمنيت ٠ خططت وعملت ٠ بذلت من عرقى ودموعى كثيرا ٠٠ فاذا بالمسألة تنتهى الى حرب تشتعل فى رأسى وأنا الذى كنت أثق دوما فى وئام مع الحيــاة وابتهاج بمسراتها الدنيوية المشروعة ٠

قال لى عم بادى وهو يدخن واحدة من سجائرى ، وعينــاه غائرتان فى مقشته ، وروحه هائمة فى أسفاره المجهولة :

ـ أنت بحاجة الى شىء من الطمأنينة ٠

ـ كيف ؟ !

ـ اعمل ولا تنتظر شيئا من أحد ٠ كن مثلى يا أخى ٠

صداقتنا بدأت وانتهت من الداخل دون أن تعبأ بالسطح ٠ تعاملت الرموز مع الرموز بلا عائق يقف بين موظف كبير وعــامل نظافة لا يعرف كيف يكتب اسمه ٠ كانت صداقتى مع العم بادى قيمــة غالية ٠٠

هل أنا المسئول عن اشتعال تلك الحروب برأسى الثقيلة أم من ؟ ٠٠ عقل يطلق حممه النارية على وجدان يرد على النار بالمــاء ولا يموت ٠ العقل جاءنى من كتب وأفكار وأبحــاث وسفر لا ينقطع واحتكاك دائم بأحدث ما توصــل اليه سادة الدنيا من ابتكارات ٠ اما الوجدان فجــاءنى من البيت والزقاق والحبيبة والنهر والنخيل

وحكايات أمي والبحر وروايات مدرس الرسم وخيرزانة ناظر المدرسة الأولية لتحفيظ القرآن الكريم ٠٠ وأما أنا فقد جئت من أب قوى وأم حانية ، ولهذا عجزت عن اقرار السـلام بين النار المتأججـة والمـاء الذى لا ينضب ٠

رغم ذلك فقد كنت ــ ومازلت ــ أدرك ان لكل شيء نهايـة ، غير أن عم بادى الذى يصيبنى وجوده أمامى بالرهبـة لم يكن مدركا لتلك الحقيقة ــ أو هكذا خيل الى ــ وتلك كانت نقطة ضعفه التى سافرت برأسه الخفيفة ذات المحتويات القليلة المرتبة بلا وداع ٠

لم يكن عم بادى يمتلك شيئا على الاطلاق ٠ حياته تتلخص فى كنس النفايات ، ووجوده يتلخص فى تجميعها وحرقها ٠ رغم ذلك فقد نجح فيما فشلت فيه كتبى واسفارى لأنه لم يعرف القلق ٠

ــ لمـاذا لم تتظلم ؟

ــ لمـن ؟

ــ للجنة شئون العاملين ٠

ــ لمـاذا ؟

ــ لتحصل على حقك فى الترقية ٠

ــ لست أريدهـا ٠

ــ لمـاذا ؟

ــ ليست لدى رغبة قوية تدفعنى الى ذلك ٠

ــ لكنـه حقـك ٠

ــ سوف يأتينى يوما من تلقاء نفسه ٠

على من تقع مسئولية الحرب المضطرمة فى رأسى ؟ ٠٠ على أنا أم على من ؟ ٠٠ جيش مدجج بالسـلاح يقوم على حراسـة ما أملك وما أتمنى أ ن أملك ، يحارب جيشا آخر يدعى أنه يحمى وجودى ورغبتى فى ان أكون ٠ الحرب بينهما لا تعرف الهدنة مثلما نعرفها أحيانا حرب المـاء والنار ٠ لكل منهما تكتيكه واستراتيجيته فى محاربة الآخر ، وكلاهما يعتقد أن خصمه على باطل وأنه على حق ٠ أما أنا فلست أعرف الحقيقة ، ولهذا فشلت فى اقرار السلام بينهما ومازالت نيران قذائفهما تشتعل برأسى الثقيلة ، ومازالت هذه الراس بحاجة لا تقبل التأجيل الى اعادة ترتيب لمحتوياتها ٠٠ ولقد أحزننى كثيرا أن علمت بعد عودتى أنه مات ٠٠ أو كما فسرت ذلك لنفسى بأنه سافر بلا عودة ٠

قلت لعم بادى قبل سفريتينا الأخيرتين :

ــ ما رأيك فى هــذا الكلام ؟

قال محذرا وهو يمسح مكتبى بطرف سترته فى سعادة :

ــ احذر على رأسك من الاحتراق ٠

لم تمض أيام معدودة على انذاره الباتر حتى جاءه اخطـار باحالته الى التقاعد ٠ فى اليوم التـالى حضر الى المصلحـة ٠ أخذ مقشته وراح يكنس الطرقات بحماسه المعهود ٠ نظر الناس اليه والى بعضهم وتهامسوا بعيدا عنه ولكنه لم يعبأ بشىء ٠ جاء موظف الأمن ليخطره بأن حضـوره الى المصلحة عمل غير قانونى لأنه لم يعد من العاملين بها ولا يجوز دخوله من البوابة الخارجية ٠ سألنى فى دهشـة :

ــ لمـاذا يمنعوننى من العمل ؟

ــ لأنك لن تأخذ عنه أجرا ٠

ــ ومن قال أننى أطالب بأجر ؟ !

لم استطع أن أقول له شيئا • طلبت له كوبا من الشـاى • اعطيته سيجارة • تأملت تجاعيد وجهه وسط سحابات الدخـان المتكاثفة حولها • كان يبتسم ولكن فى حيرة من اختلطت عليه الأمور فلم يعد ــ مثلى ــ يفهم شيئا •

حملت رأسى الثقيل على كتفى وغادرت بلادى المنهكة الى بلاد أخرى تنعم بالاسترخاء • خيل الى أننى قد أستطيع محـاولة اعادة الترتيب هناك • كانت آلاف الأميال تباعد بينى وبين عم بادى ورغم ذلك فكرت فيه كثيرا وامعنت التفكير حتى تمكنت من استحضاره أمـامى •

أمسك برأسى بين يديه وقال لى بحنان أبوى بالغ :

ــ آن الأوان لتستريح الرؤوس •

ووجدت نفسى أتساءل للمرة الثالثة :

ــ ترى من المسئول عن هذه الحروب ؟ !

لكنى لم اقذف بتساؤلى هذه المرة فى الهواء ، بل فكرت فى كل بلاد الدنيا البعيدة والقريبـة • نبشت فى ذاكرة أمى وفى طمى النيل وفى عقل مدرس الرسم وضمير الناظر فاقتحمت رأسى سـيول جارفة من صور متداخلة رأيت فيها أطفال فلسطين وسور برلين وتمثال الحرية والمسجد الحرام ودماء بيروت وجبال الألب وحديقة هايد بارك ومسجد « الفاو » وجبل قاسيون والحاسـبات الآليـة والأهرامات وبرج ايفل وحتشبسوت الملكة وآبار البترول وفينوس والأقمار الصناعية وأشياء أخرى لم يكن يخطر على بالى أن أفكر بها دفعة واحدة •

شعرت بسخونة متزايدة فى رأسى !

وجدوه ميتا فى المساء أمام البوابة بعد منعه ليومين متتالين من دخول المصلحة .. « آن الأوان لتستريح الرؤوس » .. لم أستطع الوفاء بعهدى لرأسى اذ اشتعلت بداخله حرب جديدة بين الأمل فى حياة يسودها الوئام وبين ما أسميته باليأس الجميل .

* * *

الفــــرار

لست أستطيع التأكيد على ان واقعة بعينها هى التى دفعتنى الى ما فعلت · الذى حدث هو أننى وجدت نفسى فى هــذا المكان دون أن أتخذ قرارا مسبقــا بذلك · صحيح أن الفــكرة طالمــا راودتنى وداعبت أحلامى منذ سنوات طويلة ، لكنها لم تجتز حدود حلم اليقظــة أو تتجاوز أســوار الأمنية · وربما لم تكن اكثر من وسيلة من الوســائل الطبيعية للتنفيس عن ضغوط عنيفة تعتمــل بروحى ولا يستطيع الحد من غلوائها الا المستحيل نفسه ·· ومن العجيب أننى اشعر الآن بسعادة يرقص لها القلب طربا ، ويقينى أنى لم أعرف لها مثيلا منذ لحظة ولادتى حتى وطئت قدماى أرض هــذا المكان ·

غارق فى دهشتى تملؤنى البراءة وتغسل روحى فرحة طاغية · يشملنى الوجود بحب جارف تجــاه كل ما يحيط بى من حيوان ونبات وجماد فأتوحد معهم جميعا واسمع خــلايا جســدى تغنى للكون نشيدا رائعا عن أسرار هذا الملك العجيب · أين كانت منى تلك الفرحــة الطــاهرة وقد مضــت أعوامى بلا رجعـــة ؟ ! ·· كيف فاتنى أن اقتنص هذه الفكرة واحيا هذه المشاعر لمجرد أننى لم اهتد الى سر من أسرار الحياة غائص فى عمق ما تحويه جعبتها من أسرار ·

الفضاء اللانهائى يعمر قلبى بسكينة قدسية · خلعت ملابسى دون ان أدرى ورقصت فى نشوة حالمة على انغام عميقة تفور فى أعماقى متصاعدة فى يسر وسلاسة الى عالم من نور علوى ·· عندما هدأ ايقاعها صار رقصى بطيئا بطيئا فنزلت الى النهر عاريا ، لا لأغتسل وانما لأذوب ، فما معنى أن يكون عدد ساعات العمل لمخلوق بشرى أربعة أضعاف عدد ساعات نومه ؟

خرجت من النهر تزفنى صوصوات العصافير وتنثال من حولى نسمات رقيقة تتراقص على هسيس أوراق الشجر ، فقد تجاوزت آلات التنبيه والانذار والاحصاء والقيادة افساد حياتى الى محاولة افساد ضميرى ، وليس أدل على ذلك من تلك اللحظات الأليمة التى كرهت فيها وجودى على قيد الحياة ·

لو لم تثمر هذه الأشجار يوما فسوف آكل لحاءها بكل الطمأنينة ، فلقد قلت له :

ـ لا تخش يا سيدى على مقعدك ·

وأقسمت له بالأديان الثلاثة أن جلوسى على هذا المقعد لا يدخل فى دائرة أحلامى ولا يقترب من نطاق اهتماماتى ولكنه لم يصدقنى· افزعتنى عيناه الزائغتان النهمتان بحركتهما القلقة الثاقبة ، فتخليت عن حقوقى ومصالحى وتركت له المقعد والغرفة والعمل والهواء والماء ·

لن أحتاج من المدينة الا الى أقل القليل · لن تخطو قدماى على أرضها الا عند مسيس الحاجة الى ضرورة من الضرورات · سوف أصطاد الأسماك والطيور وأجمع الأخشاب واشعلها لأطهو عليها طعامى بيدى · قلت لها :

ـ لا أستطيع ان أحبك أكثر من ذلك ، فهكذا تأمرنى طمأنينتى وهكذا يأمرنى قلقى •

قالت « نرحل » • قلت « الى أين » • قالت « أرض الله واسعة » قلت :

ـ وماذا أصنع بخوفى من تجوهرنا فى كيان واحد افقد فيه حقيقتى ولا أعود بحاجة الى شىء ؟ !

بكت •• قلت لها :

ـ لن تستطيعى معى صبرا ، فليس هكذا يكون الحب •

جمعت الفروع والأغصـان وصنعت الأوتاد وشرعت أشـيد عمرى الجديد فى قلب الغابة النائية • أحنت على الطبيعة فمنحتنى بيتا أحب أن اتملكه دون ان أفكر فى ملكيته • قال لى ان لم تدفع الآن فغيرك يتقاتل على هذه الشقة ولن تجدها غدا • قلت اننى لست امتلك هذا المبلغ الباهظ ثمنا لتمديد جسـدى بين جدران اربعة ، فانصرف عنى قائلا :

ـ هذا ليس من شأنى •

والحقيقة أنه كان بامكانى تدبير المبلغ بأكثر من وسيلة لو لم يتشدد فى اصراره على الدفع فى التو واللحظة ، غير أنى لم أجد بدا من الفرار من أمامه فقد أثار فى قلبى الذعر منظر أسنانه وأنيابه وضروسه حين كان يخاطبنى • سـال الدم من وجهى وصـدرى وبذلت أقصى ما أوتيت من جهد بشرى حتى أنتزع نفسى من بين أنيابه الطويلة المدببة وأسنانه السامة الطاعنة وضروسـه القاتلة التى طحنت طمأنينتى للآنية التى تشدق بها ، وللأمس الذى مضى قبل أن اراه ، وللغد الذى لا أدرى عنه شيئا •

أضطجع هانئا فوق فراش من أوراق الشجر ، فلم تعد تفيدنى الآن بشىء تلك الأوراق المطبوعة التى أرهقتنى وسرقت عمرى . قلت لها :

ـ اننى أعيش بثلاثة أرباع ثقة ونصف سعادة فقط .

ـ فأين الباقى ؟

ـ ضاع الربع فى الفقر والنصف فى الحزن .

ـ وما الحال بعد أن تكدست خزائنك وتكاثر أعداؤك .

ـ عاد الى الربع المفقود ، وبالمصـادفة فقدت النصف المتبقى من سـعادتى .

ثم سألتنى عن معنى الثقة فلم أعرف الاجابة . بقى ان أبحث عن عنزة لأقتات بلبنها وتنـام معى فى بيتى الجديد .. فعندما اشتد قصف الطائرات وعلا هدير المدافع وتطايرت الصـواريخ ، تتابعت ضربات قلبى تدق فى جزع اليم .. وحين واتتنى الشجاعة أن أتنازل عن حقى لأخى وأغفر له تطـاوله وتبجحه وجشعه غير المبرر وثقته الزائدة بقدرته على اغتصاب حق أخيه ، قيل لى انه قتل بشظية صغيرة فى الغارة الجوية الأخيرة . بعد ذلك بسـاعات انطلقت انذارات الورثة والمحامين بالكلمـات والنبرات والأفانين والحيل ونظرات العيون والضرب على الموائد بقبضـات الأيدى ، اتفقوا جميعا على تسليم كأس البطولة لأقدر المتصارعين حصـولا على القسط الأكبر من الأوراق المـالية المطبوعة بالألوان الخضراء والحمراء والبنايات العالية المكونة من الطوب المتماسك بالأسمنت والغرف القائمة بالحديد المسلح والفراغات الكائنة بداخلها والرائحة النتنة التى تفوح فى أرجائها بجنون التملك والملكيـة والامتلاك ، أما أنا فقد امتلكت الطبيعة بأسرها حين وهبتنى جدرانا هنيئـة

لا تعرف البيع والشراء والتوكيل والمحاكم والنوايا المستترة والنوايا المعلنة ·· وانى لواهبها نفسى لقاء ذوبانى فى النهر وقيلولتى على غصون الشجر ·

فى منتصف النهار وعلى قارعة الطريق وأمام عشرات الغادين والرائحين رايتهما يختلفان على حقيبة مغلقة · حالت بينى وبينهما اشارة مرور فاتكأت على عجلة القيادة أرقب الصراع من بدايته · فجأة أمسك أحدهما بخشبة غليظة وراح ينهال بحدها المدبب على رأس الآخر فى آلية عجيبة بوجه تخلو معالمه من لمحة انفعال أو توتر · تخبط الآخر فى دمه المتفجر من رأسه وأذنيه وترنح يمينا ويسارا حتى سقط على الأرض · فى الواجهة المقابلة للمشهد رأيت اربعة شبان اقوياء البنيان يتفرجون على المشهد أمام مدخل محل شهير لبيع الحلوى · كانت وجوههم مطابقة فى الشبه تماما لوجه الوحش المسك بالخشبة ·· لولا أن ترك شرطى المرور موقعه وجرى نحوه لما توقف عن فتكه الآلى بخصمه · كانت الخشبة تهوى على وجه الضحية بايقاع ثابت لا يتغير · تعاقب على كيانى شروق وغروب وبدأت الطمأنينة تسكن قلبى كمستقر أبدى ونعمت نفسى بالسكينة والصفاء · ورغم أنه أصبح أمرا واقعا الا أننى لا أكاد أصدق أننى أصبحت امتلك فراغا يكفينى الا افعل شيئا أكثر من النظر الى السحاب والنجوم والشمس والقمر والأشجار وارقب الطيور والأسماك والحيوانات ، وبين الحين والحين تتجاوب أعماقى مع صمت الموسيقا المتذبذبة فى جلدى وأنغامها المنصهرة من تحته فى قلب أعصابى ولحمى وعظمى ووجدانى فاعرف جيدا من اكون ·· السيد ابراهيم السباعى · هكذا أنا الآن · لم اتزحزح بعد عن موقعى على الأرض · عندما أنجب بنتا سأسميها فاطمة السيد ابراهيم · هكذا طار السباعى من موقعه · عندما تتزوج فاطمة وتنجب يضيع اسمى الى الأبد · وعندما أنجب

ولدا سأسميه كمال ٠ وعندما ينجب كمال ولدا سيسميه فرج كمال السيد ٠ يتزحزح اســمى مرة ثانيــة ٠ عندما ينجب فرج ولدا سيسميه أحمد فرج كمال ، فأين السيد ؟ ٠٠ ظل اســمه يتزحزح جيــلا وراء جيل حتى تلاشى ولم يعد يتردد فى الهواء على ألسـنة الأبناء والأحفــاد ٠٠ لا فائدة اذن من قبل الموت أو من بعده فى التشبث باسم سيد أو عمر أو عبد الجبار ٠ من الآن لم يعد لى اســم ٠ ألغيــه بارادتى قبل أن يتزحزح رغمــا عنى تدريجيــا الى العدم ٠

عندما أصبحت بلا اسم صنعت بوصة من الغاب واخذت فى تهيئتها حتى اصبحت صالحــة لاصطياد الســمك ، أما الديــدان اللازمة لغرسها فى السنانير فقد فوجئت بمئات منها تتصــارع تحت الصخور الصغيرة المتناثرة على الشاطىء ٠٠ ما كل هذا الضجيج يا أولاد الأفاعى ٠ اريد أن أنام ٠ أريد أن افكر ٠٠ ان اسرح بخيالى وأحلم واتمنى واتفاءل بالأيام القادمة ٠ اصواتكم مزعجة ٠ نفاياتكم ترهقنى ٠ تصيبنى عوادم عرباتكم ومداخنكم وأمعــائكم بالدوار والتقــزز ٠ كم يؤلمنى أننى منــكم ، وأننى لا أستطيــــع الا أن اكون كذلك ٠

قــال لى :

ــ أنت كــافر ٠

قــلت له :

ــ وكيف عرفت أيها اللبيب ؟

فقال « انك تفعل كذا وكذا ولا تفعل كذا وكذا حتى أننــا لم نعد نعرف الى أى دين تنتمى أو أى اله تعبد » ٠

قــلت له :

ـ وما شـأنك بى يا أخى ؟ ٠٠ لمـاذا لا تهتم بنفسـك وتدعنى لحـالى ٠

لكن الغبى لم يفهم ، وكان ينبغى أن التمس العذر لجهله ، لكنى لم استطع فتملك منى الغيظ وانتابنى الكدر ولم أجد خيرا من أن أفر بجلدى من كراهيته كما فررت مرارا من غيره قبل ذلك ٠

أربعون عاما مضت ٠٠ وانى لأعجب كيف تمكنت من الاستمرار فى الحياة خلالها دون ان اتذوق متعة الابصار ومشاهدة الجمـال والاسـتمتاع برؤياه فى بؤبؤ العين يتجلى وينجلى ويتلألأ بأنوار العدل ؟ ! ٠٠ قال لى :

ـ انا علم تجوب الآفاق شهرته ٠٠ فمن تكون ؟ !

ايامها كان لى اسم فذكرته فسخر منى وكان صاحب جـاه وسطوة ٠ تأملت فى تلك الآفاق التى يتحدث عنها فتبين لى أنهـا لا تزيد كثيرا عن حدود دائرة عمله العام فى مدينتنا الصغيرة الكائنة فى أقصى شـمال دولتنا الفقيرة القابعـة فى أحد اطراف قارتنـا النائمة فى زاوية منسية من العالم الأرضى الضئيل ٠ كانت فكرة قتله قد تمكنت منى فى لحظـة كلمح البرق حين تراءى لى كوكبنا الأرضى سابحا فى فضـاء الكون كنقطة مجهرية يحتاج المرء الى جهد كى يدعى رؤيته بوضوح ٠

أبتسم اليوم فى عطف حين اذكر هـذا الرجل ٠ لعله يصيح الآن فى مجال جاذبية الأرض صارخا بأهميته القصـوى للحيـاة فلا يسمعه أحد ٠٠ يبح صوته وتسيل الدماء من حنجرته دون مقابل فاود أن اتوجه اليه بالنصح ان يلتزم الصمت ولكن ٠٠ اين هو الآن منى وليس بمقدورى أن أعثر عليه ٠

الحياة فى هذه البقعة متاحة فى صمت لكل دابة على أرضها ،

فأنا وجميع الموجودات هنا نتقاســم الهواء والمـاء والطعام والأرض والسماء دون اتفاقيــة أو معــاهدة • نادرا ما يعبر الغابة رجــل أو مجموعة من الرجال فى الطريق الى الحدود المتاخمة • اتردد كثيرا قبل أن القى عليهم بتحية السـلام ، ولكنى فى النهاية اندفع بقلبى نحوهم فقد سمعت فى المـاضى همهمة ووسوسة بين الزملاء تخللها تكرار ذكر اســمى مقترنا بكلمـة « شيوعى » مصحوبا بنظرات متوجسة ، متبوعة بابتسامات خبيثة لونها اصفر • حملت صبرى فوق راسى ووضعت دماغى بين أدمغتهم فالتزموا الصـمت فقلت دون أن أقول :

ـ والله تلك سمة المنافقين •

فقيل لى :

ـ لا مكان لك بيننـا لو أردت لنفسـك الراحـة ، فنحن مختلفين معك حتى النهاية •

قـلت لهم :

ـ ما ابشع أن يجتمع الجهل والنفاق فى عقول قوم •

ولهذا لم اشأ أن أخبرهم الا شأن لى بالشيوعية على الاطلاق• كل ما فى الأمر أننى اتمنى الصفاء للجميع ، فضـلا عن يقينى بأن الشيوعية لا تجلب الصفاء•

كان طعم الأرنب البرى رائعا • التهمته بأكمله فى وجبة واحدة وغفوت فى دفء النيران المشتعلة بالمجمرة • رائحـة الخشب المحروق تسعدنى وتضفى البهجة على نظرتى للكون والحيـاة ، ولا أجد أدنى مبرر للبحث عن أسـباب تلك الظاهرة • عندما ذبحت الأرنب وتناثرت دماؤه أمامى تبين لى للمرة الثانيـة أننى صرت انسانا

آخر اذ تحررت من الخوف ، ولعل هناك رباطا خفيا يصل ما بين تحررى من اسمى وتحررى من خوفى ، فقد صاحوا من خلفى :

ـ امسكوا هذا الرجل ٠٠ انه مجنون ٠

لم أصدق ما حدث فى بداية الأمر حتى راح هؤلاء المجـانين يجرون باتجـاهى فجريت ٠ ولـما أوشكوا على اللحاق بى تزايدت سرعـة عدوى بدافع من غريزة البقـاء ، ولكن الذى كان يحيرنى حينئذ أننى لم أكن أعرف لـماذا اتهمونى بالجنون ، ولـماذا كانوا يريدون القبض على ، والذى كان يزيد من حـيرتى أن نظـراتهم النارية المصوبة على وجهى لم تكن تعبر عن التحدى بقدر ما كانت تعبر عن الخوف ٠٠ ولهذا فانى لم أتمالك نفسى فى النهـاية من الضحك أثناء عدوى اذ لم أستطع مقاومة السخرية من فكرة تدغدغ ذهنى ناطقة بالقول :

ـ خائفون يطاردون خائفا ٠

ولـما نجحت فى الهرب منهم توقفت اتأمل ما حدث فى هدوء٠٠ تذكرت بداية الحوار حين نقلت لهم فكرة واردة من الغرب تقول بوحدة الأديـان من حيث الجوهر وتطالب اما بتوحيـد الطقوس الثلاثة واما بالغائها سعيا للسلام بين الشعوب ٠

والحقيقة أن الفكرة الأصلية كانت تنص على الالغاء فحسب ، ولكنى اضفت التوحيد لأوسـع دائرة الاختيـار وأرفع من حرارة الحوار ٠ لم أشأ فى البداية ان أعبر عن رفضى للمبدأ برمته ، فأنا

احب ان اكون مسلما ، وغيرى يحب أن يكون مسيحيا أو يهوديا ٠ رايت ان أؤجل اعلان رأيى حتى نهاية الحوار فكان ما كان ، وتساقط المطر غزيرا على عشى الجديد القديم ٠ احتميت بداخلى فى داخله وكانت اطرافى ساخنة بل ملتهبة ٠٠ لا كتاب ولا امرأة ولا سيجارة ولا شىء من صناعة المدينـة بالمرة ٠٠ ها هو الملل يتسرب الى من بين ثنايا الأغصـان والأنسام ٠ أربعون عاما لم تعن شيئا فماذا تعنى الأعوام القادمة وهل أمضيها بين الأحراش أم أعود الى هؤلاء المجـانين ؟

.... هـذا وقد بلغ عدد القتلى من الفلسطينيين حتى الآن حوالى تسعمائة .. اقتحم عملاق القاعة المغلقة بالفندق الكبير . صاح بثبـات شـديد فى وجوه المجموعـة الجالسـة بعيـدا عن ركن التليفزيون :

ـ من يشعر منكم أنه رجل فليتقدم .

نظر الرجال الى بعضهم البعض ودب الفزع فى قلوب النساء. ارتبك الجميع وسقطت بعض الكؤوس .. وقد صرح مصدر مسئول بأن الانتفاضـة مستمرة ولن تتوقف الى الأبد . تكثفت نظـرات العيون فى وجهه وساد الصمت المكان .

ـ سأعطيكم مهلة دقيقتين .

اعتقد أحدهم أنه مخمور فدعاه ضاحـكا الى تنـاول الشراب معه . تجاهل العملاق الدعوة والتزم بتثبيت معالم الصرامة على وجهه .. وقد اندفعت الجماهير المتعطشة الى الحريه نحو سـور برلين . فى حرص شـديد رفع الموظف المختص بخدمـة العمـلاء سماعة التليفون . لمحه العملاق فأنذره بهدوء :

ـ اغلق السماعة من فضلك .

امتثل الموظف للأمر لكنه اتجه ناحيته محاولا تفادى جسده الشبيه بقلعة والخروج من باب القاعة ٠٠ وصرح الزعيم العربى الكبير بأن أمته العظيمـة سـوف تقف بثقلهـا خلف الشـعب الفلسطينى ٠ أشار اليه العملاق بسبابته فى اتجاه المكان الذى قدم منه محذرا اياه بنفس الهدوء الواثق :

ـ عد من حيث جئت ٠

تردد الموظف قليلا ولكنه عاد الى موقعه ٠ بمجرد أن جلس قال له العملاق بوقار :

ـ حسنا فعلت ٠

واصل البعض تنـاول الشراب والثرثرة كما لو كان الأمر لا يعنيهم ، بينما انهمكت مجموعة الركن فى متابعة نشرة الأخبار ٠٠ انهالت نظرات اللوم على النادلين اللذين كانا يقومان بخدمة النزلاء حين التزما الصمت فى البداية ثم التوجس فالطم؟نينة فالعودة الى ممارسة عملهما بتقديم الطعام والشراب فى هدوء طبيعى ٠

نظر العملاق الى ساعته وقال بابتسامة ساخرة :

ـ انقضت الدقيقتان ٠ كنت أعلم ذلك ٠ هـذا المكان ـ كبقية الأماكن ـ يخلو من رجل !

صاح أحد الجالسين بلهجة مرحة :

ـ هذا ما نعرفه جميعا ، أو ما اعرفه عن نفسى على الأقل ، فماذا يضيرك أنت ؟

قال بيأس مستقر :

– لم يعد هناك شيء يضيرني . كنت أريد فقط ان اتأكد من صحة نظريتى .

– مادمت تتحدث عن نظريات فلماذا لا تجلس معنا ؟

وقد صرح مسئول كبير بأن أية محـاولة لفهم ما يدور بلبنان سوف يكون مصيرها الفشـل .. كان مظهره جذابا . تنبىء لفتانه عن انسان متحضر شـديد الثقة بنفسه الى درجة الجراة الفائقة ، بل اننى لمحت فى لمساته خفة ظل مستترة . لم يفكر أحد باحتمال أن يكون مسلحا ، كما لم يشعر احد بنيـة ارتكابه لفعل أحمق . كان وجهه – رغم ما فعل – يوحى بالود والطمأنينـة . تابعتـه بشغف شـديد من موقعى بأقصى ركن فى القـاعة الهادئـة التى لا يرتادها الا قلة من أصحاب المزاج الخاص .

تمنيت أن يتصاعد الموقف الى درجة الاثارة واستدعاء رجـال الأمن وما الى ذلك من احداث تقتل الضجر . تعجبت ان ينتهى الأمر بهذه البساطة ، بل اننى شـعرت بالضيق لذلك اذ تخلى صاحبنا عن التصاقه بباب القاعة واتجه بثبات ناحية محدثه .

فى تلك اللحظة خرج موظف القاعة وعاد من فوره مصطحبـا اثنين من العاملين بأمن الفندق . حين راوا صاحبنا يجلس مع آخرين ويبادلهم حديثـا وديا فانهم تبـادلوا فيمـا بينهم نظرات تنم عن الحيرة والتعجب ، وما لبثوا أن انصرفوا فى هدوء .

غادرت عزلتى وضجرى وانضممت الى الصحبة . قال المتحدث باستخفاف مستتر بعد ان اشعل للعملاق سيجارة :

– حدثنا عن نظريتك .

... ويتوقع المراقبون أن أزمة الشرق الأوسط لن تحظى بأقل

اهتمام خلال اجتمـاع الزعيمين الكبيرين فى مالطة على السفينتين الحربيتين ، ولكنى تدخلت بدبلوماسية غير مصطنعة قائلا له :

ــ ألا ينبغى أن نتعارف أولا ؟ !

نظر الى بابتسامة صافية عبرت عن ارتياحه لمنطقى فقـال بتلقائية مفاجئة :

ــ أنا مخلوق ينتمى الى نفس فصيلتكم · هاموش لا يضر ولا ينفع ·

قال المتحدث الآخر بثقة :

ــ كنت عـلى يقين من ذلك حـين ألقيت علينـا انـذارك الجهنمى ·

ابتسم العملاق ولم يعلق فسألته بتحفز :

ــ لنفترض أننى ادعيت لك أننى رجل ·· ماذا كنت تفعل ؟

ــ كنت سأوجه اليك سؤالا صعبا ·

ــ ما هــو ؟

ــ « لمـاذا لم تفعل شيئا تثبت به رجولتك » ؟

··· وسوف تستمر الزيادة فى مرتبات الموظفين بنسبة مماثلة حتى تصل الى مائة فى المـائة بعد خمس سنوات ، ولكن لا مفر من تحديد النسل فهذا حلال ، والحلال والحرام بين ·

ــ ولمـاذا لم تفعل أنت ؟

··· وقد استقبلت جماهير أسيوط أعضاء المسرحية استقبالا حافلا مما يؤكد أصالة هذا الشعب وحبه للفنون ورفضه للتطرف بكافـة اشكاله ·

ـ الم أقل لك انني هاموش ؟ !

ـ متأسف ٠٠ نسيت !

قـال المتحدث :

ـ وما هـو ذلك الشيء الذى يمـكن أن نفعـله لنثبت به رجولتنـا ؟

٠٠٠ ومرة ثانية يزدحم مطار القـاهرة بالمصريين العائدين من القطر العربى الشقيق ـ أحياء وأمواتا ـ دون حصـولهم على مستحقاتهم المـالية ٠٠ لكن كبار المسئولين صرحوا بأنها مشـكلة يسيرة الحل وأن تصـدير العمالة لابد أن يخضع لتنظيم دقيق ٠٠ وهكذا انتهت المشكلة !

ـ ألا تعرفـه ؟ !

ـ نعـم ٠

ـ اذا كان الأمر كذلك فاسمح لى انك غير جدير بالارتقاء حتى الى طور الهاموش ٠٠ انت أدنى منه بكثير ٠

توقفت عن متابعة التعليق على النشرة وسألته بقلق .

ـ وهل من المفروض أن أعرف كل ما ينبغى أن أفعنه ٠

ـ بالطبـع ٠

ـ ألا تظن أنه من الممكن أن أعرف ولا أفعل ؟

ـ اذا اكتفيت بالمعرفـة فانك لن تتجـاوز طور الهاموش ، أما اذ اتجاوزتها الى الفعل فتلك خطوة الى الرجولة ٠

هـذا ويلقى المسـتثمرون الذين فقـدوا أموالهم باللوم على

الحكومة وعلى أجهزة الاعلام ، بينما يصرح سيادة الوزير أن المشكلة فى طريقها الى الحل باذن الله وأن الرقابة على مطار القاهرة قد أصبحت مشددة للغاية ، بحيث لن يستطيع مستثمر واحد أن يهرب مرة أخرى ·

ــ وما هو الحل اذن ؟

ــ أطلب لى أولا مشروبا مركزا ·

طلبت له ما أراد وعدت الى متابعة التعليق على الأنباء · كان المذيع يحاور ضيفا على جانب كبير من الأهمية · قال الضيف بتأفف شديد :

« على الشباب ألا ينتظروا شيئا من الحكومة · الصحراء امامهم فليزرعوها بأية وسيلة · أما اذا أصروا على انتظار وصول الماء والكهرباء والمواصلات فليس من حقهم أن يشكوا من البطالة » ·

انفجر العملاق فى الضحك وقد تابع الفقرة الأخيرة من الحوار مع الضيف ، ثم ابتلع ما بالكأس فى جوفه دفعة واحدة ·
أشعل سيجارة واضطجع على مقعده بارتياح عظيم · عاودت سؤاله :

ــ لم تقل ما هو الحل !

قال محدثا نفسه فقط :

ــ ليس الحل سهلا كما قد يتصور البعض ·

··· شكرا سيداتى وسادتى ، واليكم الآن اغنية « يا حبيبتى يا مصر » ·

عضـــة كلـب

- ١ -

اقتحمت العجوز مدخل المستشفى الخيرى بعويل زلزل أركانى وكـاد لوحشـيته الغريبـة أن يأتى على بقيـة ما احتفظت به من ثبـات عصـبى فى مواجهـة الحيـاة . تجسد كيانهـا الانسانى فى عود رفيـع هش تكســوه مزق بالية من قمـاش اســـود ملطخ بآثار الزمن .. تولول فى الم شديد والدماء تسيل من كفهـا الأيمن . تبكى ولا دموع فى عينيها .

ـ الكلب عضنى .. عضنى الكلب .

عندما فاجأنى الورم كان فى بدايته صغيرا فلم ألتفت له ، وعندما ازداد حجمه ذهبت الى طبيب التأمين الصحى المجانى التابع للمصلحة التى اعمل بها . كشف على صــدرى فى لامبالاة . قال دون أن ينظر الى وجهى ويده تسرع فى كتـابة الدواء انه تمزق بسيط فى أسفل عضلات الصدر . غادرت طابور المرضى الطويل من الموظفين التعساء وتوجهت الى الصيدلية ، قال لى الصيدلى ان هذا الدواء مجرد مسكن للألم لا أكثر . لم يجد الدواء نفعا فنصحنى ولدى الأكبر بالتوجه الى طبيب خاص . ابتسمت فى وجهه فأطرق

خجلا وعاد الى كتبه وكراساته ٠ وصفت لى جارتى موقع هـذا المستشفى الخيرى الذى يتقاضى من المرضى أجورا رمزية ٠

لم يختلف طابور المرضى من عموم الفقراء عن طابور المرضى الحكوميين ٠ لم يزعجنى الأمر كثيرا فأنا فى النهـاية أنتمى بنفس القدر الى الفئتين معا ٠

انفك عقد الطابور ٠ تجمهر المرضى حول العجوز ينظرون فى الم شديد الى كفها المعروق وعلامات أسنان الكلب قد حفرت فى عظامها أخاديد عميقة ٠ كان واضحا أنها تجاوزت الثمانين من العمر حسبما أوحت الى تضـاريس وجهها المعقدة ٠٠ قالت الممرضـة بلا انفعال واضح :

ـ ليس لدينا استقبال للحالات الطارئة ٠

سألتها بمرارة استقر أثرها فى دمى وعلى خطوط وجهى :

ـ أليس لديكم ولو قليـلا من صبغة اليود أو الميكروكروم وقطعة من الشاش حتى يتدبر أحد أمرها ؟

ـ للأسـف لا ٠

ـ وما العمـل ٠٠ هل نتركهـا حتى يسرى داء الكلب فى دمهـا ؟

بدت علامات الضيق والتبرم على وجه الممرضـة ، لكنهـا اغتصبت ابتسامة صفراء كالحة قالت من خلالها :

ـ يمكنك ـ ان شئت ـ ان تصطحبيها فى عربة خاصـة الى مستشفى الكلب ٠

لو فعلت هذا فلن أستطيع دفع ثمن التذكرة ولا ثمن الأشعة

وقد مضى شهران كاملان حتى استطعت تدبيرهما فى صمت ، سارعت الى العجوز أسألها :

ـ أين تسـكنين ؟

اجاب حارس المستشفى وهو يدخن سيجارة أخذها من مريض ليضعه فى مقدمة الطابور :

ـ انها تسكن فى عشة صفيحية خلف المسجد القديم ٠

لم اعبأ بقوله اذ أصابنى منظره بالتقزز مذ رأيته ، وعاودت سؤالى للعجوز فراحت تولول دون أن تنظر الى :

ـ عضنى الكلب ٠٠ الكلب عضنى ٠

ـ اليس لك ابنـاء ؟

ـ لا اعـرف ٠

حيرتنى اجابتها والقت على كاهلى بخوف من الزمان لا قبل لى به ٠٠ رحت أتفحص يدها المصـابة بذهول شديد ٠ أمن المعقول أن تكون هذه العضة النافذة العميقة عضة كلب ؟ ٠٠

قال أحد الواقفين مخاطبا نفسه :

ـ انها تعيش فى هذا المكان وحيدة منذ سنين ولا احد يعرف لها أهلا أو أقارب ٠

لو سألنى أحد نفس سؤالى لها لأجبته بأن لى أولادا ثلاثة ٠٠ أكبرهم يدرس بالجامعـة وأصـغرهم بالتعـليم الاعـدادى ٠٠ ولو سألنى :

ـ لماذا لم يأت احدهم معك ؟

سأجيبه بأنني أتيت هنا دون علمهم حتى لا اضيع من وقت أحدهم دقيقة واحدة . ولو سألني :

ــ فلماذا لم يأت معك زوجك ؟

سأجيبـه بأنه عض يدى التى امتدت اليه بالخـير والحب والعطاء ، ثم هجرنى ــ بعد أن أثرى ــ الى زوجة أخرى فى عمر أبنائـه .

قالت الموظفة الجالسة الى شـباك التذاكر بانفعال شـديد الصـدق :

ــ فليأخذها أحدكم الى المستشفى الجـامعى على بعد أربع محطـات ترام .

تروح العجوز وتجىء فى مدخل المستشفى بين عشرات الكلمات يتقاذفها المرضى ويتبادلون النظر فى اشفاق اليها أحيانا والى بعضهم البعض احيانا أخرى .. لكن الحصيلة النهائية للكلمـات والنظرات والمشاعر تمثلت أمامى على وجوههم الذابلة فى أن الأمر لايمكن أن يعنى أحدا سـوى صاحبته ، وأن احدا لن يفعل لها شيئا حتى لو سرى السم فى دمها وماتت أمامهم على مدخل المستشفى الخيرى .

ـ ٢ ـ

فى الطريق سألنى سائق العربة الخاصة :

ــ أمـك ؟ !

أجبته بلا تردد :

ــ نعـم .

اعتقد السائق انه يزف الى بشرى رائعة حين اخبرنى أنه لم

يعد هناك مبرر الآن لاعطــاء مريض الكلب عشرين حقنة فى البطن ٠ لقد تطور الطب فى بلادنا واستبدلت بهذه الحقن العشرين حقنــة واحدة مكثفة ٠ سألته بلهفة :

ـ وهل تعطى هذه الحقنة بالمجان ؟

ضحك السائق كمن يداعب طفلا ثم قال لى باشفاق :

ـ سوف يحدث هذا يوما ، ولكن فى الأحلام ٠

فوجئت بصمت العجوز عن الصراخ والعويل ٠ خيل الى أن مقاومة جسدها العليل قد انهارت وأن الســم قد تمكن منها الى الأبد ٠ لعلها ارادة الله أن تستريح هذه المخلوقة التائهة فى خضــم حياة لا تعرف الرحمة ، وأن تسكن البيت الأخير فى هدوء ٠ استراحت نفسى قليلا لهذه الخــاطرة ولكنى فوجئت بها تنظر الى نظرة عميقة نافذة أصابتنى بشىء من الفزع ٠ تجلت فى نظراتها امارات الدهشة والشك والعرفان واليأس والفرحــة والزهد واللامبالاة ٠٠ ولأول مرة أرى الدموع تتساقط من عينيهــا فى ندرة تشف عن غلوهــا وامتناعها ورغبتها فى البقاء متحجرة بمقلتيها المنطفئتين ٠

تحــول الفزع فى نفسى الى وجيب فى قلبى فمسحت دموعى بظهر كفى وتبددت آلام الورم المجهول فرأيت أبنــائى وقد صــاروا كبارا حين سافر منهم من سافر وبقى منهم من بقى وقد اســتقل بزوجته وأبنائه بعيدا عنى ، وبقيت فى وحدتى أجتر آلام عضــة زوجى القاســية ليدى وتضخم الورم فى صدرى وعجزى عن الاحتماء بأحد من أفاعيل الزمان وغدر المجهول ٠٠ وتساءلت ترى هل تنتهى أيامى الى مثل ما انتهت اليه أيام هذه المخلوقة التعسة القابعة الى جوارى كنفاية لفظت بها هموم المكان والزمان الى بالوعة النسيان٠

ـ للأسف لا يوجد لدينا مصل اليوم ٠

ـ هل يعقل حدوث هذا فى مستشفى تخصصى ؟ !

ـ وما العمـل ؟

ـ اذهبى بها الى المستشـفى الأمـيرى فربمـا كان لديهم مصـلا ٠

استعوضت الله بما تبقى معى من نقود قليلة وتوجهت بالعجوز فى عربة أخرى الى المستشفى الأميرى العام ٠٠ ذلك المكان الذى يدق قلبى رعبا لمجرد أن يتبادر اسمه الى مسمعى ٠

لم أهتم كثيرا بآلية العجوز فى استجابتها الاستسلامية الى سلوكى معها ، فيقينى أن الحيـاة قد انهكتها بما فيه الكفاية ٠ لم يعد يعنيها أن تعبر عن شـعورها بالامتنان أو الغضب ٠٠ اركبى تركب ٠ انزلى تنزل ٠ تعـالى تجىء ٠ لا معنى عندها للقبول او الرفض ، بل ان ملازمتى لها ووجودى الى جوارها فى محنتهـا لا يعنيان شيئا عندها ٠ وكأننى مسخرة مثلها تماما بفعل قوة أكبر منى ومنها ومن الوجود التلازم والمحنة والأشياء لأن ننتقل من هنا الى هناك ومن هناك الى هنا ٠٠ هكذا خيل الى بتأثير صمت العجوز ذات النظرات الغريبة ٠

لم يتفوه السائق الثانى بكلمة واحدة بعد ان اكتفى بالنظر الينا برهة فى حنو شـديد ٠ عاودت النظر فى فضـول لا مبرر له الى يد العجوز ٠ لابد انها عضـة ذئب أو أسد ٠ أو أنها عضـة مخلوق آخر الا أن يكون كلبا ٠

عندما تفحصت يدها هـذه المرة رأيت اختلالا قد حدث في ناموس الحياة القائم على العدل ، فأنا لم أفعل ما يسيىء الى زوجي حتى يهجرني ، وليس بنيتي أن أتردد ـ فيما بقي لي من عمر ـ لحظة واحدة في التضحية بحياتي من أجل أبنائي ، فلماذا فعل بي زوجي ما فعل ولـماذا سوف يتركني أبنائي وحيدة حين يكبرون ؟ !

أفاقت العجوز من غيبوبتها فأفقت معهـا حين قالت نجـأة بصوت يحمل رنة انتقام يائس :

ـ يجب أن نبلغ الشرطة ٠

بدأت المسكينة تستسلم لسريان لعاب الكلب في دمها ٠ ها هي ذي بوادر الهذيان ، فبأي شيء تريد أن تبلغ الشرطة ؟

ـ خذيني أولا الي الشرطة حتى يقبضوا على الكلب ٠

ـ ارتاحي يا أمي ٠ بعد المستشـفى نذهب الى الشرطـة باذن الله ٠

ـ لو تأخرنا سيغلق دكانه ويهرب ٠

ـ من هو ؟ !

اندفعت في الصراخ الآلي من جديد ٠ تهيأ لي أنها لم تكن تشعر هذه المرة بألم حقيقي ، بل انها تحتـال لدفعي الى تحقيق رغبتها باتباع تلك الوسيلة ٠ أخيرا نطق السائق بمجرد أن توقف بالعربة أمام المستشفى ٠

ـ هناك مركز للشرطة قريب من المشتشفى ٠

فوجئت به يحملها بين يديه ويطلب مني انتظاره بالعربة حتى ينتهي من مهمته التي كلف بها نفسه في صمت ٠ تنفست بارتيـاح

وزالت عنى كل اسـباب الكدر دفعة واحدة ٠ بعد قليـل عـاد السائق مبتهجا والعجوز بين يديه كعود من القصب ٠ وضعهـا الى جوارى وهو يعبر بكلمات مهذبة عن دهشته لسذاجتى اذ قضيت معها كل هذا الوقت دون ان ادرى ان الذى عضها انما هو رجل يعد الشاى فى دكان صغير مجاور لعشتها الصفيحية ويبيعه للعمال ٠

سألتها فى ذهول :

ــ ماذا فعلت به حتى يعضك بهذه القسوة ؟

ــ ٤ ــ

فى مقر الشرطة لم يجد الضابط بدا من اغلاق المحضر وحفظه لكون الجـانى من المتخلفين عقليا بغض النظر عن أسباب خلافه مع جارته العجوز التى لا يعرف لها أحد نسبا ٠٠ وفى طريق عودتى الى بيتى كنت على ثقة اقرب الى اليقين من أن الورم الذى ظهر فى صدرى ورم حميد ٠

الزميـــــل

نفذت فى عينيه الى عمق بعيد فلم تستجب خلجاتى لابتسامته العريضة ، وانما انتابتنى قشعريرة داخلية ضاعفت من شـعورى بالانزعاج • كان ذهنه يعمل بسرعة فائقة لا يخطر بباله أبدا أننى ارصدها فى التو واللحظـة • هناك سر غامض عجيب يكمن بداخلى فى منطقـة مجهولة ، شبيه فعله بفعـل جهـاز الـ •
السنسور هذا جهاز شديد الحساسية من شأنه ان يستقبل حركة او ذبذبة ميكانيكية أو تغيرا فيزيائيا أو كيمائيا لينقله بدوره الى أجهزة اخرى تتحكم تبعا لذلك فى بقية العمليـات المتصلة به عن بعد • قـال لى السر ان ابتسامة زميلى هـذا زائفـة لا تنبع من القلب • ورغم أن كلماته تبدو تلقائية ودودة الا أننى أرى وراء كل كلمة هدفا ووراء كل هدف محـاولة مستميتة لتحقيقه ولو تم ذلك على حسـاب البشرية بأكملها • صافحنى بحرارة فقال لى السر انه لا يحبك وقلت للسر اننى اعرف ذلك • أعرف أيضـا انه نجح بمهارة فى استغفال معظم الزمـلاء وخداعهم بتواضعه المتقن وأحاديثه المرحة حتى اكتسب احترامهم ــ وهذا ما يسعده الى حد الجنون ــ كما اكتسب محبتهم وان كانت لا تهمه كثيرا فالحب عند مثله من البشر أمر عسير الادراك ، وربما كان ترفا لا حاجة عنده اليه •

أراه يضع « البايب » فى فمه ويتحدث بعظمة فارغة محاكيا أحد زعماء مصر الراحلين فلا أستطيع الضحك منه كما لا أشعر بالاشفاق عليه أو الرثاء لحاله ، فجهازى السرى الحساس يلح على دائما بأنه رجل غير حقيقى منفوخ بهواء فاسد ٠٠ هكذا كان حالى دائما مع هذا الزميل حتى أننى غدوت دائم التوجس من نظراته وأفعاله وأفكاره ، سيء الظن به وبأمثاله ممن توقع بهم الظروف فى مجال الرصد أمام سرى العجيب ٠

منذ أيام قلائل اشتكى الى من الفجوة « الصارخة » بين عقليته وعقلية زوجته ، ومن اهمالها لشئون بيتها ٠ جاملته بحذر قائلا ان كثيرا من النساء فى هذه الأمور سواء ٠ نسى أنه كان فى الماضى القريب يعبر لى عن سعادته الشديدة بذكاء زوجته وبحياته الزوجية الخالية من الأطفال ٠ قال لى السر انه يتمنى ولو طفلا واحدا ، لا حبا فى الطفولة أو الأبوة ، وانما تجنبا للشعور بالدونية أمام بقية الرجال ٠ ولما رزق بثلاث بنات صار يمتدح خلقة الاناث ويطرى فى محاسنهن ويصفهن بالرقة والحنان ، ناقما على خلقة البنين مستنكرا أنانيتهم وجحودهم عندما يكبرون ٠ أبرق لى السر بشفرة عاجلة تفيد بأنه يتمنى الولد بحكم تكوينه الريفى من جهة ، ولأنه دائم المقارنة بين ما لديه وما لدى غيره من جهة أخرى ٠

كنت الوحيد من بين الزملاء الذى لم تنطل عليه حيله وأفانينه فى اخفاء ما تعتمل به نفسه من متناقضات فى كل ما يفعل ويقول ؛ الفضل ازعمه لذلك السر الغامض الذى لا ناقة لى فيه ولا جمل ٠ هو شيء ولدت به فيما أظن وفطرت عليه ، وسواء أكان منحة من الخالق أو عقابا منه فهو قدر ليس باستطاعتى أن أجابهه بالعناد أو أن اتباهى بنسبة فضله الى نفسى ٠

* * *

قررت يوما أن أبحث عن حقيقة هذا السر حين شعرت أنه ارهقني وباعد بيني وبين الكثير من الزمـلاء • خيل الى أنه مستتر وراء ما حدث بيني وبين البعض من قطيعة ، وأنه حائل عنيد بيني وبين حبي لهم وحبهم لي • ولقد تطور بي الأمر حتى اتهمت نفسي بشدة الغرور وسـوء الظن بالآخرين • حينئذ قررت أن أتمرد عليه وأن أتخلص من آثاره المدمرة على حيـاتي ، ولو اقتضى الأمر أن أنفيه تماما من حياتي فلن أتردد • سـوف أتعامل مع الكون بأكمله متجاهلا ذلك السرطان الوحشي القابع بشـكه ومكره في منطقـة مجهولة من كياني الانساني •

* * *

طالعني الزميل بنفس ابتسامته العريضـة فرأيت في عينيه سعادة حقيقية ولمست في مصافحته ودا انسانيا صادقا ، ووجـدت نفسي منساقا الى الحديث معه بلا تحفظ فبئست حياة تخلو من الود والمحبـة : قلت له انني اسكندري الأب والجد وأن لي من الأولاد ثلاثة ومن البنات واحدة • شكوت له من ضيق ذات اليد وضآلة الراتب الشـهري الذي لا حيلة لي سواه • حدثتـه عن منزلي الأنيق المرتب الذي تجتهد زوجتي ـ على قدر امكاناتنـا المتواضعة ـ في جعله جنة تتهادى السعادة بين أعطافهـا • رويت له قصة حبي لزوجتي قبل أن يجمع بيننا بيت الزوجية • أسمعته أشعارا مما حفظت وعلمته كيف يحرك مؤشر الراديو الى محطـة البرنامج الموسيقي ليستمع الى الكلاسيكيات والموسيقا الخفيفة • لم اجد صعوبة في أن أنقل اليه مشاعري الصادقة تجـاه الحيـاة بوجه عام ـ مهمـا بلغت مصاعبها ـ فقلت له انها حلوة وجديرة بأن تعاش •

ويبدو أننى فى غمرة اندماجى معه غفلت عن متابعة أثر حديثى على عينيه ، لا لأننى تخليت عن سرى الشيطانى الخبيث ، ولكن لأننى لم أكن فى الحقيقة مندمجا معه وانمـا كنت مندمجا مع نفسى . كنت سعيدا بحـالى ، تلك السعادة التى لا يعرف أحد لها سببا حين تأتى . حكيت له عن زياراتى للعديد من الدول الأوروبية وعن حرصى على مراسـلة الأصـدقاء ــ رغم انشغالاتى الكثيرة ــ من جميع أنحاء العالم . تشعبت الأحاديث وتفرعت فعرف أننى من قراء التراث العربى والرواية العالمية ، وأننى فى لحظات الملل من الحياة أعزف على العود وفى لحظـات الخوف منهـا ألجـأ الى كتـاب الله .

فجأة نظرت الى عينيه فأصابتنى رعشة من الخوف ارتجفت لها أوصالى . الخوف مماذا ؟ . لم أعرف . فكرت فى استلهام السر من جهازى الغامض . منقذى ولعنتى فى آن واحد . غصـت بخوفى الى أعماق سريرتى وقد استبدت بى رغبة عارمة فى النزول عن قـرارى ، ولكنى لم ألبث أن طفوت الى وعيى من جـديد . تخلصـت من قلقى أو تخلص القلق منى دون أن أعرف كيف ، وعاودت الحوار مع الزميل .

حدثنى عن الأراضى الزراعية التى ورثها عن أبيه ، وعن فقراء قريته الذين يفدون الى منزله بالاسكندرية من حين الى حين فيقدم لهم العون بصـوره المختلفة ليعودوا الى قريتهم راضين . قـال انه متمسك بوظيفته فى المؤسسة التى يعمل بها كشـكل اجتمـاعى فحسب ، لكنه ليس بحاجة على الاطلاق الى جنيه واحد من راتبه . لم أستطع أن أحجب عن ذاكرتى عدة مواقف سابقـة أوحت لى من قبل أنه يهتم بكل قرش يصرفه من خزانة المؤسسة ، وأنه يحفظ

عن ظهر قلب كل بنود الخصم من الراتب الأساسى بنسبها المئوية الثابتة والمتغيرة ٠

تصدع جدار الطمأنينة وأصبح وشيكا أن يتهاوى أمام عينى ٠ فرض السر نفسه على من جديد ٠ لعنت نفسى وقلت ان هذا الزميل أفاق كبير ٠ بالسر وبدونه أفاق ، ولن اسمح لنفسى أن تستخف بعقلى أو تحقر من شأنه مرة أخرى ٠

فى نهاية اللقاء فوجئت به يربت على كتفى فى حنان أخوى بالغ أصابنى بشعور عميق بالذنب ، لأننى ظننت به السوء فربما يكون المسكين بريئا من غرور سرى القابع فى عمق المجهول ٠

تأرجحت بى الظنون فى لحظة من لحظاتى الصفرية بين ما أضمرته نواياى الطيبة ، وبين نبضات السر المنذرة بجهلى وانسياقى وراء عواطفى ٠ رأيت ألا مبرر لما أعانى من عذاب التردد الذى لم يسفر يوما عن الرسو على بر ، وقلت ان طمأنينتى لن تتألق قبل أن اضع غيرى موضع الاختبار العملى ولو لمره واحدة ، وليكن هذا على ضوء آخر ما صرح به الزميل من قول ٠ سوف أبذل المستحيل حتى أعرف الحقيقة ، أينا على صواب : أنا أم جهازى السرى الغامض ٠ كان محتما أن أبدد الأوهام وأمحق الشك والظنون فى تواصلى مع الناس ٠ وكان طبيعيا أن أتحرى عن حياة هذا الزميل بكل وسيلة متاحة ٠ لم أشعر أننى أتجسس على شريك فى الانسانية ، وانما كنت واثقا أننى مسخر بقوة هائلة لتأدية مهمة تخلو من دوافع الشر تماما ٠ انها مهمة بالدرجة الأولى ، من دونها لا يحلو طعم الحياة ٠

* * *

قال البعض ان أباه كان يعمل خفيرا لدى اقطاعى قديم عاش على سرقته عاما بعد عام ٠ قال آخرون انه ورث بالفعل ممتلكات

عديدة عن هذا الخفير • لم يكن يعنيني فى المقام الأول مدى شرعية ميراثه ، وانما كان يعنيني ان اعرف هل هو ميسور الحـال أم انه فقير مثلي ولكنه يتباهى بما لدى غيره كما تتباهى الصلعاء بشعر بنت اختها • توصلت فى النهاية الى أنه يعيش حقا فى بحبوحة وان كانت مجهولة الشرعية وان كان حجمها أقل نسبيا مما ادعى • على ان حال فالرجل صادق الى حد كبير ، أما الكاذب فهو ذلك السر اللعين الذى أسلمت له مقاديرى فأصابنى بالانتفاخ والغرور والادعاء بالنفاذية الى سرائر الغير •

لم أكتف هذه المرة بمصافحته عندما طالعنى بابتسامته المعهودة، وانما اندفعت نحوه فقبلتـه ، واللعنة على تلك الهواجس الكريهة التى تنتهى بالمرء الى عزلة عن الحيـاة باردة أشبه بالموت • عندما كنت أتحدث معه من قبل عن سفراتى الى الخـارج كانت نظرات عينيه مختلفة تماما عن اليوم • اليوم قررت أن هذا الزميل يحبنى بصدق • سألنى ببراءة عن التناقض بين امكاناتى المـالية وتلك السفرات المتعددة • أجبته بنفس النبرة التى أجبت بها أخى من قبل قائلا اننى بعد انصرافى من المؤسسة أعمل بمكتب فنى يديره مهندس شهير •• وأنت تعلم يا أخى أن راتب الحكومة لا يكفى وأن الله أمرنا أن نتحدث دوما بنعمته • لقد اصطحبنى هـذا المهنـدس معه فى رحلاته الأوروبية كمستشار فنى له والا ما تحقق هـذا الحلم يوما فى حياتى • ولقد أيقنت شدة براءته حين سألنى بابتسامة رائعـة عن سر التفـاف نساء المؤسسة من حولى وعن شدة ثقتهن بآرائى ورغبتهن الدائمة فى الافضـاء الى بأسرارهن • قلت له لا تظن بى السوء يا أخى فانى اخاف الله وأحب زوجتى ، وانما المسـألة أنى أنفذ بيسر الى قلوبهن وأحس بوجيعتهن ولا أفتقد رأيا سـديدا أسديه الى اى منهن حين تطرح على خصوصية من خصوصيات حياتها

فى ثقة وأمان ، ولاشــك أن تاريخى بالمؤسسة يخلو تماما من مجرد اشاعة عن علاقة خاصة ربطت بينى وبين احداهن فى يوم من الايام ٠

خلال حوارنا قدم خبير كندى ممن يعملون معنا بالمشروع الجديد للمؤسسة فتبادلت معه حوارا حول مسيرة العمل ٠ حين انصرف الخبير كان زميلى عاجزا تماما عن اخفاء ذهول غريب اكتست به معالم وجهه المستطيل ونطقت به عيناه الغائرتان فى افصــاح يصعب قمعه ٠ والحقيقة أننى لم أكتشف لهذا الذهول ســببا ٠٠ ولولا انهيار ثقتى بالسر وسحب اعترافى به لأرجعت ذهول الزميل الى مفاجآته بمهارتى الشديدة فى التحاور بالانجليزية التى يعجز هو عن التحدث بها دون تعثر أو أخطاء ٠

❋ ❋ ❋

غير أن مرور الأيام وتتابع الأحداث والمواقف لم تأت جميعــا الى بيقين ٠ فلتذهب تحرياتى الى الجحيم ٠ منــذ متى خضــعت أسرار الحيــاة الى حكمة العقل ونتيجة التجربة فقط ؟ ! ٠٠ قرون استشعارى تؤكد لى صــدق سرى وحساسية جهازى العجيب ٠ لو أشرقت الشمس من الغرب فلن تهتز ثقتى بكذب الزميل وصــدق السر ٠ صحيح أنه لم يتعمد ايذائى يوما ، لكنه ــ يقينا ــ قد فكر فى ذلك أو حاول ٠ صحيح أنه حاول مساعدتى أكثر من مرة فى أكثر من مناسبة ، لكن نية المســاعدة لم تكن كريمة البواعث ٠٠ كيف عرفت هذا لست أدرى ٠ وكيف أوقنه لست أدرى ٠ ويوما جاءنى الزميل متهللا وجهــه بالفرحة حين قــال لى فى هيستيرية مزعجــة :

ــ الا تهنئنى ٠٠ لقد أنجبت ولدا ٠

ويوما آخر علمت من أحد الزملاء أنه التحق سرا بأحد معاهد اللغة الانجليزية ، كنت قد نصحته قديما بالالتحاق به لتحســين

لغته لكنه تجـاهل النصيحة وانحرف بالحديث الى موقع آخر ٠٠ ورغم ادراكى أنه غير ملزم باطلاعى على شـئونه الخاصة ، ورغم احترامى لحرية كل انسان فى اختيـار كيفية حركته فى الحيـاة ، الا أننى توقفت طويلا أمام تلك الواقعة وكأننى قطعت على نفسى عهدا بألا أستريح قبل أن أكتشف الحقيقة ٠

تعددت بعد ذلك أسفار الزميل الى نفس البلاد التى زرتهـا من قبل مع المهندس الشهير ، ولمـا تعجبت من غرابة الحـال قال لى انها مجرد مصادفة ٠٠ غير أن مصـادفات مماثلة أخذت تترى الواحدة وراء الأخرى حتى جاء يوم جمع فيه بيننا مجلس مع بقية الزملاء ٠ نظرت كعادتى الى عينيه والحيرة تعتصر قلبى ٠ شعرت أننى على وشك الامسـاك بالحقيقـة بين يدى ٠٠ لقد تلاشـت ابتسامته العريضة !

- ١ -

أصدر المدير العام قرارا بإيقاف متولى حسنين عبد ربه عن العمل لحين الانتهاء من التحقيق معه بتهمة تبديد المـال العام ٠

- ٢ -

السيد/ مدير عام المجمعات الاستهلاكية بالمنطقة

مقدمة لسيادتكم متولى حسنين عبد ربه والفراخ المجمدة كان عددها مائتين بالتمام والكمال ، أما تاريخ حياتى فلنت غافلا عنه مثلما كان غافلا عنى لولا أن اضطررت للكتابة اليك ٠

بعد التحية والاحترام ٠٠

فانني أعترض على نتيجة التحقيق واطعن فى صحة الجرد أستعيذ بالله من شرور البشر وأحب رائحة البخور وكنت أتمنى فى **صباى أن أعمل سفيرا لبلادى فى الغرب ٠٠ لكن عندما تصل سيارة المجمعات الاستهلاكية محملة باللحم الضـأن والبقرى والجاموسى فانني أفرح كثيرا لأننى كنت من المتفوقين فى مادة الفلسفة ٠**

من يستطيع أن يسـابقنى فى تشفيـة لحم البهـائم — أى استخلاصه من العظم — سأشهد على يده مهنئا دون غيرة أو حسد ٠ تزوجت من امرأة مجففة أحبها كثيرا ، ويعلم كل من يعرفنى أن اللحوم تصيبنى بالدوار اذ تسبب لى رؤيتها أو تذوقها أو مجرد سماع اسمها مشكلة معقدة أعتقد أنها نفسية ٠

كان يوما حارا مرهقا ، وكان آخر أيام الامتحانات بالسنة الثانية بكلية الآداب ٠ عدت جائعا ٠ خصتنى أمى بقطعتين كبيرتين من اللحم ، بينمـا كان نصيب الفرد الواحد من أفراد أسرتنـا السبعة قطعة واحدة صغيرة ٠ جلس أبى ينقل بصره بيننا جميعـا فى ذهول غريب ٠ كانت المرة الأولى التى نحظى فيها بمثل هـذا الطعام النادر بعد مضى شهرين كاملين ٠ لاحظت أنه لم يشاركنـا الطعام ٠ أقسم أن تأكل أمى قطعته ثم تعلل بضرورة الخروج من المنزل لقضاء أمر هام ٠

مضى على ذلك اليوم أعوام ولم يعد حتى الآن ٠٠ ويا سيدى المدير العام أنا لست أنوى التعرض لأحد أو الخوض فى سير الآخرين ولكنى أريدك أن تثق بما أقول ورزقنا جميعا على الله ٠ لا تفعل مثل الآخرين الذين يبتسمون لى باشـفاق حتى قبل أن أكلمهم لأنهم جميعا كاذبون ٠ لم أستجب لنصيحتهم بالذهاب الى طبيب نفسـانى يحررنى من مشكلتى مع اللحم والسـكاكين والنـاس الطيبين والأشرار ٠ مشكلتى الحقيقية تقوم بينى وبين نفسى ولكى أحلها ينبغى أن أتخلص على الفور من فقرى الشـديد وكبريائى الواهم وترددى فى اتخاذ القرارات المصيرية وتعقلى الزائد عن الحد٠

لو مررت يا سعادة المدير العام على مجمعنا فى أى يوم فسوف تجد معطفى الأبيض الناصع ملوثا بالدماء ، ولكنك لن تكتشف أننى

مللت حتى نخاعى من تلك العلاقة الغامضة بين اللون الأبيض واللون الأحمر وانصراف خطيبتى عنى الى حبيب جديـد بعد أن حصلت على الليسانس • أما أنا فسوف أكتشف بعد قليل أن الملل قد أصاب سعادتك من شكواى المطولة بالحديث عن نفسى ولكن هذا لا يهمنى كثيرا فى واقع الأمر ولقد سبق أن نصحت صـديقا لى منذ عدة أعوام بأن يخلع ملابسه ويرقص عاريا مع نفسـه حين يشعر بالملل •

اعترتنى نوبة من الضحك حين قالوا عنى اننى لص !

صحيح أننى لم أستكمل دراستى وأن عملى قد اقتصر على التفنن فى نزع العظام من اللحوم بالسكين وتقطيعها وبيعها لرواد المجمع ، لكن هذا لا يمنعنى من التوجه الى سعادتك بسؤال عن معنى السرقة فى اطار زمان محدد ومكان محدد أيضا •

اجابتك اعرفها منذ اللحظة التى اختفى فيها أبى وبكت أمى وخضت تجربة ثرية فى عالم المستشفيات وأقسام البوليس ومشرحة الموتى وبيوت الأقارب ومنازل الأصـدقاء والمقاهى والملاهى وأمواج البحر والكتب السـماوية والحيوان الوحيد الذى يطير بجنـاحين ولا يعرف طريقه الا فى الظلام •

سوف يدفعك مقعدك الاسفنجى الى القول بأن معنى السرقـة لا يرتبط بزمان أو مكان فهو قاطع ومحدد ويعنى الحصـول على ما للغير بدون وجه حق سواء بالحيلة أو بالعنف •• وأنا أوافقك على هذا التعريف المطلق للسرقة ولكن لو شئت محاكمتى انطلاقا من هذا المبدأ فلن نتفق لأسباب عديدة • لا تنزعج يا أخى فى الله لو اتهمتك بناء على ذلك بأنك أيضا لص كبير •

أما لو بنيت احكامك على اساس نسبى ، للزمان فيه وللمكان آثار لا تعد ولا تحصى فاننى سوف أقبل بحكمك حتى لو كان جائرا • لا تتصور أننى أبتعد كثيرا عن صلب الموضوع حين يتطرق حديثى الى أمور اخرى ، فأنا مهتم بدرجة عالية بالنظر فى وجوه الزبائن وملابسهم ، والى كيفية سيرهم فى الطريق وقبل حصولهم على اللحم وبعده • عيونهم تجذبنى بشدة • اخوتى وأخواتى أعياهم البحث عن أبى ثم باعدت بينهم السنوات وبين املهم الغامض فلم يعد أحدهم يفكر فى البحث عنه أو حتى يذكره • ما زالوا يدورون فى فلكى غير المستقر وأنا أدور حول نفسى وأعترض على أمانة رئيس لجنة الجرد وعلى نفاق أعضاء اللجنة له وعلى الكثير من الأساليب التى تدار بها الأمور هنا وهناك •• ويقولون اننى لص !

زبائنى من راكبى العربات الفاخرة يبتسمون كثيرا ودون أن اصدقهم لأننى أعلم أنهم يعلمون أن هذا المجمع لم ينشأ لأجلهم • تهمنى أسنانهم بالدرجة الأولى وأجدنى أركز بصرى بصفة خاصة على أنيابهم • نفذت مرة فى عمق حياة أحدهم فراح يشتكى لى من الغلاء وكاد يبكى وكدت أن أصدقه ثم تراجعت ثم صدقته •• ومن الغريب اننى ــ وللأسف ــ أفضلهم على غيرهم من زبائنى أصحاب النظرات المنكسرة والملابس المكرمشة ذات الألوان الباهتة • أنت تعرف السبب ولا تملك الاعتراض عليه مهما ادعيت بغير ذلك •• المسألة كلها تخضع لفكرة المستويات ولا فائدة من اسمى ثلاثيا أيها المدير العام اللبيب اسمى متولى فقط ، وانتبه جيدا الى ما أقول فأنا جزار بارع ، واللهم أعوذ بك من الفقر والذلة واعوذ بك أن أظلم أو أظلم •

وينبغى ان تعلم يا كبير رؤسائى أن أبى لم يقدم لنا تفسيرا

أو توضيحا أو تلميحا يمهد به لقراره بالفرار . لقد نجح فى الافلات من سجنه بمنتهى النذالة من وجهة نظرنا وبمنتهى العدل من وجهة نظره . ها أنت ترى تشابه الأمور مرة ثانية ، فهو نذل وعادل وأنا لص وشريف وأنت المسئول عن اتخاذ القرار .. فهل تسمح لى أن اعاونك على اتخاذه ؟ .

فى البداية يجب أن تعلم أن قرارك لابد أن يكون واسعا ، رغم اننى لم أسمع من قبل عن شىء اسمه قرار واسع ، ولكن ما دامت اللغة بيدنا فلنفعل بها ما نشاء . لماذا الاتساع اذن ؟ .

لأن المسألة برمتها واسعة جدا يا أخى وسع الله عليك وعلينا فى الرزق الحلال . السعة هنا تأتى من اتساع السجن الذى أرتع فى زنازنيه فأنا لست نزيل سجن واحد هو الذى وضعنى فى هذا المأزق كشأن اى سجين عادى وانما أنا نزيل عدة سجون فى وقت واحد رغم اننى لم ارتكب أية جناية . الفعل الأصلى وسع والاتساع أو الوسع يتناقض مع احكام الأمور فتتغلب عليها « السبهللة » و « البهوقة » والترهل ومادام الأمر كذلك فأنا نزيل سجن الصدفة التى شاءت أن يهرب أبى وارجو الله أن يكون قد توفاه رحمة به لأننى حين اذكر نظراته الشاردة البلهاء أمام طبق اللحم لا أستطيع تحملها فأغرز السكين فى لحم البهيمة بعنف وحذق لأستخلصه من عظمها فى لمح البصر فتبتهج أساريرى وينشرح صدرى لفترة لا تلبث أن تذوب مع الزمن الخبيث .

وانا نزيل سجن الفقر الذى لا تستطيع قوة على الأرض أن تنزع مخالبه السامة من لحوم ضحاياه المختارين قبل أن يتركهم جثثا هامدة ، ومن الغريب اننى أقتله بسكينى وفى كل يوم عشرات المرات لكنه أبدا لا يموت . لعنة الله عليه يا أخى وعليك ان كنت ترى غير ذلك مع اعتذارى لمقامك الادارى الرفيع .

وأنا نزيل سـجن التزامى بأسرتى الضائعـة قليلة الحيلة والرزق والتفكير والقدرة على التأمل ، والأدهى أن هذه الأسرة هى الأخرى سجينة حيز واسـع من الأرض والهواء والنـاس يفتقد المعالم والحدود ويرتع فى عوالم مجهولة لا يعلمها الا الله ٠

وفى النهاية فأنا سجين افكارى الحقيقية حينا وأفكار الاتساع الواسع حينا آخر ، وبعبارة اخرى تلخص لك موقفى فأنا انسـان معصور معجون مذبوح مبصر ضرير يسار يمين ٠٠ من هنا كان لابد أن اصف قرارك المرتقب بالاتساع واعتقد أنك فهمتنى الآن ٠

وثق يا سيادة الرئيس الأعلى أننى لست أحاول أن أسـتدر عطفك حتى تعفو عنى وتعيدنى الى سكينى وبهائمى ومعطفى الأبيض المبل ، فأنا لست أخافك او اخاف غيرك لأننى لم ارتكب جرما فى حق احد بعينه سـواء من عملائى ذوى الأنياب الطويلة المدببة السامة او الآخرين ذوى الابتسامة الصفراء الباهتة المنهزمة ٠

المسألة يا سيدى ببساطة أن مدير الجمعيـة فاجأنى ذات يوم بقوله :

ـ كم حصيلة الاكراميات اليوم ؟

ـ مائة وعشرون جنيهـا ٠

ـ هـات ثمـانين ٠

ـ لمـن ؟

ـ لى وحـدى ٠

ـ وهل ترضى ان توزع الأربعين جنيها على خمسة عمـال وموظفـين ؟

ـ من اليوم سيصير هذا النظام ٠

ـ لــاذا ؟

ـ لأننى بحاجة شديدة الى مبلغ من المــال ٠

ـ وكلنا أيضا بحاجة شديدة مثلك ٠

ـ قرارى غير قابل للنقــاش ٠

ـ هل علم الزملاء بهذا القرار ؟

ـ ليس هــذا من شــأنى ٠

ـ واذا اعترضت فماذا أنت فاعل ؟

ـ لن تملك حق الاعتراض فأنا مدير المجمع ٠

ـ لن تأخذ قرشا واحدا من المــائة وعشرين جنيها ٠

ـ هل جننت فوق جنونك الذى نتحمله كل يوم ؟

ـ يجــوز ٠٠ ولكنى مصر على قــرارى واركب اعلى ما فى خيــلك ٠

ـ سيكون عقــابى شديدا ٠

ـ اعتمد على الله ٠

سيدى المدير العــام ٠٠

لقد اعتدنا فى فترة الراحــة أن نغلق أبواب المجمع ويذهب أحدنا لاحضار طاجن اللحم بالبطــاطس من الفرن المجاور ثم نجلس جميعا نحن الستة نتناول الغداء ونشرب الشاى ونشتم فى المسئولين ونلعن فى الغــلاء ونسب فى الدنيــا ونأمــل الخير فى الآخرة ويقوم بعضنا للصــلاة ٠

اما اللحم فهو حصيلة فروق الميزان ـ غير المقصودة ـ بين المجمع الرئيسى ومجمعنا والزبائن فضـلا عن بعض الأخطاء الحسابية التافهة التى نبرر بها تلذذنا باستطعام اللحم الذى نبيعه للعملاء ٠ واما البطاطس فأمرها هين ، والحقيقـة أن موازين الجمعية كلهـا تالفة ومستهلكة وقد كتبنا مذكرات عديدة الى سيادتكم لتبعثوا بمن يصلحها دون جدوى ٠٠ اللافت للنظر أن التلف فى هـذه الموازين يعمل دائما لصـالح الجمعية لا لحساب العميل ٠

وبالطبع يحتاج الأمر الى ما يقرب من كيلو جرام من الطماطم وبضع بصـلات وقليل من البهارات حتى تفوح رائحـة البطاطس فيسيل لعابنا ونأكل بشراهة وننسى الدنيـا لشدة انغماسنا فى مرقها وسمنها ودهنها ٠

فى ذلك اليوم كنت أنا نفسى واسعا ٠ أشعر باتساع الدنيا والأشياء بما فيها السكاكين ومؤخرات البهـائم وصحراء سيناء ورحمـة الله ٠٠ لذلك فاننى ما أن لمحت الطـاجن الشـهى يكاد ينطق معبرا عن جمـاله حتى اعطيت الاشـارة المتفق عليهـا مع الزملاء ٠ قمت باغلاق الباب بنفسى وقاموا بتكتيف سيادة المدير بحبل قذر ومدوه على الأرض ، بينمـا وقفت أسن سكينى على الحافة الرخامية لطاولة البيع وأنظر الى سـيادته من حين لآخر لأستمتع بالرعب الشديد على وجهه ٠ وحين قال أحدهم لى :

ـ شهل يا متولى ٠ اعمل لك همة حتى نخلص ٠ بسرعة ٠

فان سيادته صرخ مستنجدا بأعلى صوته :

ـ أنـا فى عرض النبى ٠

اقتربت منه والسكين بيدى وقد أجدت تمثيل الموقف رغم شرودى الشـديد فى تلك اللحظة اذ كنت أفكر فى زوجتى العجفـاء

وأبى الهارب وكلمات أغنية مغربية سمعتها بالمصادفة ذات ليلة فجعلتنى أبكى بلا سبب · صاح سيادته فى جبن شديد :

ـ ابوس رجلك يا متولى ·

ـ والثمانون جنيها ؟

ـ لست اريدها ·

ـ كلها ؟

ـ ولا قرشا واحدا منها ·

ـ شاهدين يا اخوان ؟

صاحوا جميعا :

ـ شاهدين ·

ـ ولو تركناك هل تقل اصلك فيما بعد ؟

ـ بشرفى لن يحدث ·

ـ كأن شيئا لم يكن ؟

ـ كأن شيئا لم يكن ·· وهل كان شىء حقا ؟

ـ فكوا قيده يا رجال ·

وأكل معنا بشراهة رغم ان جسده كان يرتعش بشدة · تملكتنى رغبة شديدة فى صفعه على قفاه ولكنى نسيت ·

فى اليوم التالى فوجئت بلجنة الجرد ·

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام والتبجيل يا مديرنا العام ·

توقيع : متولى

... وجاء فى مذكرة المدير العام أنه ينصح بتحويل متولى الى قسم الأمراض النفسية والعصبية بهيئة التأمين الصحى بعد الغاء وقفه مع اعادته الى العمـل بعد عدة أيام حتى لا يربط بين الأمرين ، على ان يراعى المدير الجديد للجمعيـة حسن معاملتـه وان يوليه عناية خاصـة تجنبا لاثارة المتاعب فى المجمعات التابعـة لادارة المنطقـة .

حـــالة صغريـــة

حسبته أمرا عاديا أن يجرى أمامى صرصار ويكون فى متنـاول يدى فلا أفكر فى التخلص من وجوده الكريه فى غير مكانه · ليس هذا من باب التعاطف معه أو انعدام الرغبة فى القضـاء على حياته ، وانما لمجرد الكسـل والشعور بعدم أهميـة قتله أو تركه يرتع أمامى فى وقاحة بين كتبى وأوراقى ·· ذلك أنه من الضرورى أن أبذل جهدا لرفع يدى ـ بعد أن تمسـك بالحذاء ـ ومن الضرورى أن احكم الضربة واحسن تصـويبها قبل أن انقض عليـه والا افلت منى · ومن الضرورى أيضا أن أستنفر فى نفسى ارادة قوية لا تعرف التردد فى قتله · والحقيقة أننى لم أجد لنفسى مبررا واحدا لكل هذه الضرورات · ورغم ذلك فقد كان لابد أن أبذل جهدا آخر ـ وان كان عقليـا ـ للتوصـل الى فهم ما يبرر موقفى الجديد تجـاه الصراصير ، فأسوأ ما فى هذا الأمر أنه ما من شىء بهذه الدنيـا الا ويحتـاج الى جهد سـواء لفهمه أو الحصـول عليه أو حبـه أو كراهيته أوقبوله أو رفضه ·

كان احساسى بالعدالة هو المبرر الحقيقى لموقفى من الصرصار· فلمـاذا أقتله لأن منظره يؤذينى ويشـعرنى بالتقزز بينما أترك مخلوقات أخرى ظلت تؤذينى وتصيبنى بالغثيان على مدى خمسة

واربعين عاما دون أن افكر حتى فى لومها أو مجرد انذارها · لقد جاء هـذا الصرصار فى تلك اللحظة لينبهنى الى حقيقة هامة تتعلق ببقائى على قيد الحياة ، وان كنت لا أستطيع ان أجزم ان كانت العناية الالهية هى التى بعثت به الى الآن أم أنها مجرد مصـادفة كان من الممكن ألا تكون ·

يسمونه الصرصار الأمريكى وهو صغير الحجم لا ينمو لأكثر من مليمترات محددة · ولقد حدثت بيننا مواجهة ساخنة تبادلنا فيها الحيلة والمراوغة والنظرات التأملية المنطوية على الغدر والخسـة أحيانا وعلى البلاهة أحيانا اخرى · غير أن أحدنا لم يتخذ من الآخر موقفا ايجابيـا يسفر فى النهاية عن فعل محدد · ظل ينظر الى متوجسـا وهو يحرك شواربه فى هـدوء أحيانا وفى عصبية أحيانا اخرى · يمشى قليلا الى الأمام ثم يعود ثانية الى الخلف · يحوم حول مساحة دائرية صغيرة فى متناول يدى وبصرى · أتأمله بعمق ويتأملنى بغموض ·

تعجبت كيف تحملت عيناى رؤية القبح ثم اعتادت هذا التحمل زمنا طويلا ، وتساءلت هل امتزج القبح بالجمـال أم صار القبح جمالا أم أننى فقدت بصرى أم أصبحت أنظر بعينين غير عينى أم اننى لم اكن أنـا ·

لو كان فراشة جميلة ملونة لمـا كان فى الأمر غرابة ، لكنه مخلوق قذر بشع المنظر رغم صغر حجمه ودقة تكوينه وبراءة نظرته الخبيثة النابعة من شدة جبنه وتشبثه بالحياة بأى ثمن ·

تحرك فجـأة باتجاه يدى الممسكة بكتاب ضخم · اتسمت حركته بشىء من الحرص فى البداية ، وشيئا فشيئا تملكته الجرأة

أمام سكونى وصمتى وشعورى بالوحدة واستقرار الملل فى خـلايا جسدى • ازداد اقترابه من يدى حتى لامسها ، وبتسلل غير محسوس نفذ فى جلدى دون أن أحرك ساكنا • شـعرت به يجرى فى دمى ويسبح فى حرية تامة حتى وصل الى نفسى فاستقر بها • . . .

عندئذ ظهر صرصار آخر وكرر معى نفس المحـاولة ثم تلاه صرصار ثالث فرابع وخامس وألف حتى امتلأت نفسى بالصراصير وانا فى حالتى الصفرية الساكنة التى لا تعرف الحركة الى يمين أو يسار أو أمام أو خلف أو فوق أو تحت •

وعندما اختفت الصراصير من أمامى شعرت فى البداية بقلق لم يلبث أن أعقبه شعور بالسعادة ترتب ظهوره على ادراكى المفاجىء أن القلق دليل على الحيـاة •• ولكن لأنى كنت يائسا ، فقد تعادل عندى شعور القلق بشعور السعادة فلم أعد أشعر بشىء !

الجســـر

- ١ -

أتيت فجأة الى الحياة كما يأتى أى مخلوق . وجدت أن الدنيا ما هى الا أرض واسـعة وتعجبت لأنهـا تبدو فى عيون المخلوقات ضيقة حتى أنهم يتزاحمون عليها بتدافع العقول والأكتاف والأجساد، وأحيانا بالقلوب . تصـادف ألا أجد من يرشـدنى منذ اخضرار عودى الى كيفية التعامل على هذه الأرض الواسـعة الضيقة مع هؤلاء المتزاحمين . فى شارع سينما جيتيه بالابراهيمية كنت واحدا من الهائمين فى ذلك الطوفان البشرى غير المبرر . منذ سـنوات عديدة كان لهذا الشارع طابع خاص بمقاهيه اليونانية القديمـة ومطاعمه الصغيرة التى تنبعث منها رائحة شـواء اللحم والسمك . كان عدد السكان قليلا ، وعلى طول الطريق يلتقى السائر بباعـة الزهور والجرائد والفواكه وكان الناس على وجه العموم يبتسمون . تبين لى بعد عشرات السنين انه حتى لو كنت قد وجدت من يرشدنى فذلك لم يكن ليغير من واقع أمرى شيئا . ذلك أن المرشـد نفسه قد يخونه التقدير فتسير الحيـاة على غير ما رأى ، أو أننى قد لا أستجيب لارشاده أو ربما لا أقتنع به منذ البداية . المهم أننى سرت كما يسير غيرى فى الأرض باحثا عن وسيلة للحياة . لست

اذكر ما الذى أتى بى الى هـذا الشارع ولكنى كنت أشعر بالأسى لمـا أرى · اذ تأكد لى أنه كلما تمر السنوات تزداد عموم الأحوال سوءا والله أعلم · أصـوات الميكروفونات وشرائط الكاسيت تتداخل عبر الأرصفـة والمحـلات الكئيبة التى تخلو واجهاتها من لمسـة ذوق واحدة · ضجيج العربات وصراخ الشباب وبكاء الأطفـال وعيون النسوة على المعروضـات وسـلال الطعام وروائح كريهـة وطوابير طويلة واقفة أمام المخبز وتلال من القمامة ملقاة فى كل مكان بحيث تمكن منى شعور بالقرف من الحياة ·

كنت فى مسيرتى مسلحا بالفطرة أستمد منها ثقتى بالمستقبل وفى الوقت ذاته كنت مفتقرا الى كثير من المصـادر الواقعيـة لتثبيت هذه الثقة وترسيخها فى نفسى ، لهذا كنت أعانى دائما من الخوف والتردد ، مثلما كنت ومازلت أعانى من تلك الثقة التى لم أعرف كيف أضـع يدى على مصدرها · غير أننى كنت أشعر فى بعض اللحظات شعورا طيبا عرفت فيما بعد أنه السعادة لم يكن يلبث أن يزول فجـأة ليعاودنى مرة أخرى فى زمن آخر ثم يزول ثانيـة دون سابق انذار ودون أن يبرر بشكل أو بآخر ظهوره أو اختفاءه ·

لمحته يسحب أطفاله الأربعة فى ملابسهم الرثة · أعلنت صلعته استسلامه للزمن وكان جبينه مقطبا وأساريره منقبضة وملبسـه شديد البلاء بينما ازدادت عدسـات نظارته سمكا فوق سـمكها القديم · مرسى عبد الجبار · زميل الدفعة بكلية الآداب · آه أيتها السنوات البالية · هل مضى كل هـذا العمر دون أن نلتقى ؟ ·· رأيت فيه نفسى وقلت انه لو رآنى فسـوف يخـدع فى ملبسى المتأنق وحلتى الزاهيـة وحذائى اللامع · فكرت أن أسـارع اليه لأصافحه وأقبله ولكنى تراجعت فى اللحظة الأخيرة ووجدت نفسى منساقا مع الطوفان الى حيث لا أدرى ·

وجدت الناس يشيدون لأنفسهم المـأوى قرب النهر أحيانا وقرب البحر أحيانا أخرى ، كما اضطر البعض الى تشييد مأواهم فى الصحراء • وبدأت حيرتى ـ التى ستصبح أزلية ـ أمام الاختيار الأول فتبين لى أننى انسان لا يستقر على قرار وان لم أبحث حتى الآن فى سر تلك الظاهرة • على أية حال كان اختيارى للموقع مثاليا من وجهة نظرى إذ كان يقع فى بقعة صحراوية تطل من ناحيـة على النهر ومن الناحية المقابلة على البحر ، ويبدو أن هذا الاختيـار قد دفعنى رغما عنى نحو المواجهة الأولى مع المتزاحمين • انشقت الأرض عن رجل قال لى بجفاء :

ـ مـاذا تفعـل ؟

ـ أبنى جحرى •

ـ ابحث لك عن مكان آخر والا كانت نهايتك •

ـ لمـاذا ؟

ـ هذه الوظيفـة محجوزة لى وقد أمضيت عمرى استعدادا لشغلها بالترقية اليها •

حملت معولى ومعداتى وملابسى وطعـامى وآثرت السـلامة فالأرض واسعة ـ على الأقل فى نظرى ـ وذهبت لأحفر لنفسى جحرا آخر فى مكان بعيد له نفس المواصفات الجغرافية •

سألت زميلا عن مرسى عبد الجبار فعلمت أنه يعمل باحـدى المصالح الحكومية منذ تخرجنا فى الجامعـة • ذهبت اليه مدفوعا بقوة فطرية طاغية • استقبلنى بمودة غامرة حتى أنه كاد يبكى لشدة فرحته بلقـائى بعد مرور ربع قرن من الزمان • أسرنى عطفه الشديد

وودت لو فديتـه بعمرى فما عهدت فيمن عرفت من الناس كل هذا القدر من المحبة والتعاطف الانسانى • سألته باشفاق عن احواله وكانت صـورة هيئته البائسـة مع أبنائه مازالت عالقة بذهنى فأجاب متنهدا :

ــ نحمده ونشـكر فضله •

ــ الم تغير وظيفتك منذ تخرجنا ؟

ــ نعـم •

ــ ألا تعرف الملل ؟

ــ لقد تصادقت معه وانتهى الأمر •

ــ زملاؤنا اصبحوا وكلاء وزارة يا مرسى •

ــ هـه •• حظوظ يا أخى •

رن جرس التليفون • رفع السماعة بآلية مميتة • بعد قليل وجدت أساريره قد انفرجت الى مداها وبانت السعادة على وجهـه طافحة • قال لمحدثه بتركيز واهتمام شديدين :

ــ الم اقل لك أننا سنهزم هذا الفريق ونصـل الى كأس العـالم ؟

أصابنى وجوم ممتزج بالدهشة • بعد انتهاء حديثه حاولت أن أستكمل معه ما انقطع من حوار ولكنه واصـل الكلام عن كرة القدم بتأثير فعل مغناطيسى منوم • ارتفع صوته واحتد ، وتحمس وهاج وماج وبزرت شرايين رقبته • مسح العرق على صلعته وقال :

ــ سوف ننتصر •• باذن الله •

وبعد ان صافحته وغادرت مكتبـه شعرت بهزيمة ساحقـة تطحن روحى وتعتصرها ولكنى تحملت الألم •

خرج من باطن الأرض مخلوق انسانى آخر . كان اكثر جمالا من سابقه . قال لى بتأدب شديد :

ـ هذا المكان لى وحدى .

ـ لمـــاذا ؟

ـ نفوذ أبى كبير ، وهذا الموقع لا يليق الا بأبناء الأكابر .

ـ فلنتنافس عليه بشرف .

ـ لا تضيع وقتك فأنا ثرى أجيد عدة لغات وأستطيع تمثيل بلادى فى الخـارج فماذا عندك أنت ؟ .

ـ عندى ما عندك وربما يزيد فى بعض القدرات وينقص فى البعض الآخر .

ـ توكل على الله ولا تضيع وقتى . لن يكون لك جحر هنـا بأى حـال .

ـ اذن فهى دعوة للقتـال .

ـ لو نظرت من حولك جيدا الى الحراس والأتباع والعبيد المختفين وراء الأشجار لأدركت أن الانسحاب أكرم لك من الاهـانة المؤكـدة .

توجهت الى ربى بدعاء من القلب أن يلهمنى الصبر والتوفيق الى مكان أشـيد فيه جحرى حتى أشبع وأرتوى ثم أنام آمنـا ، ولكن الله لم يستجب لى فى حينه ورغم ذلك لم أيأس من رحمته .. وجاءنى مرسى باكيا كطفل . عبر لى عن فرحته باستعادة صداقتنا

من الزمن بعد ان أوشك أن يطويها تحت جناحيه الحارقين ٠ سألته عن أحواله فأخفى عنى أنه يعيش مع زوجته وأبنائه الأربعة فى حجرتين صغيرتين اشبه بكهف ذى شعبتين وأن حياته تعانى من ارتباك مالى شديد ٠ لم يحدثنى عن أخيه الذى اعتقل فى قضية سياسية ، ولا عن أبيه الذى مات حزنا على ولده الغائب ، ولكن بعد صمت طويل قال لى انه لم يكن يتصور يوما وهو فى أشد حالات التشاؤم أن تصل به الأيام الى هذه المحطة ليقف عندها منهكا مكدودا فاقد العزم والحيلة ، عاجزا عن الفرحة والأمل ٠

كنت أحمل فى حافظتى مبلغا من المال أعددته لأشترى بعض اللوازم المنزلية الهامة التى سبق تأجيلها منذ عدة أشهر ٠ دعوته لقضاء الليلة فى أحد الملاهى الليلية حتى أخفف عنه توتره الشديد وانقباضه الشبيه بظلمة الموت ٠

- ٤ -

واصلت السير حتى فوجئت بجندى يشهر سلاحه فى وجهى ويصيح غاضبا :

ـ كلمة السر ٠

ـ لست أعرفها يا أخى ٠ اخفض سلاحك من فضلك فما أنا الا مدنى أعزل ٠

ـ ربما كنت جاسوسا ٠

ـ أنا مجرد انسان يبحث عن مكان ٠

ـ لو بقيت هنا فعليك بطاعتى والائتمار بأمرى حتى الموت ٠

ـ لماذا ؟

ـ أنا هنا صاحب القرارات والأوامر والنواهى وأعرف كيف أحميها وادافع عنها جميعا ·

ـ وما المقـابل ؟

ـ أوفر لك الجحر وقدرا من الطعام يقيك من الموت ·

قـلت لنفسى :

ـ اللعنة على مثل تلك الحياة القاتلة للروح ·

ومضيت أبحث عن مكان جديد لجحرى ·· كان مرسى مسلوب الارادة تماما حين دخلنا الملهى وجلسنا الى مائدة · بعد أن شرب كثيرا بدأت أعصابه تعرف الارتخاء · عبر لى عن اعجابه الشـديد بالموسيقا والرقص والغنـاء · تماديت فى تشجيعه على المزيد من الشراب واللعنة على البيت ولوازمه وعلى أيامنا وسنواتنا المنصرمة والقادمة · وانطلق مرسى يتحدث فى فضـاء لا نهاية له · قال ان الخوف يطارده بلا هوادة · يتصـور احيانا انه اصيب بالعمى ويظل يفكر كيف سيدير شئون حياته وقد فقد بصره · يتخيل أحيانـا أنه اصيب بالكساح والشلل ويمضى الليالى الطويلة محيرا فى أمره وكيف يمشى وكيف يحصل على قوت الأولاد وكيف ستحتمله الأيام· يرى نفسه أياما اخرى وقد انحرف فسرق وارتشى وكذب واحتال على الآخرين ليحل مشاكله الاقتصادية واذا بقوة مسلحة تهـاجم منزله قرب صلاة الفجر لتقبض عليه وتزج به الى السجن · طلبت له مزيدا من الشراب حين بدأت الضحكات تتخلل حديثه · كان يقف فى بعض الأحيان ليواصـل الحديث لفترة تطول وتقصر ثم يجلس مرة ثانية ويشرب ولا يكف عن الكلام ·

– ٥ –

بعد سنوات من السير عبر الصحارى والبحار والأنهـار ، فوجئت يوما بحمار يعترض طريقى • فرحت به وأملت بوجوده فى الخـلاص • ما أن اقتربت منه حتى انفجر فى الكلام متدفقـا بغير توقف وعلى فمه ابتسامة ساخرة • قال لى ضمن ما قال :

« اعرف أنك تبحث عن مكان لجحر منذ زمن طويل ، واعرف ما لاقيت من عنت من الآخرين مما اضطرك الى النـوم فى العراء عرضة للضـوارى والعواصف والأمطار • كما أعرف الكثير عن تكوينك الشخصى وتركيبك النفسى الوجدانى » • سألته فى قلق :

ـ اذن فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟ •• لقد تعبت •

ـ التزم بتوجيهـاتى •

ـ سمعـا وطاعـة •

ـ أولا عليك بنسيان نفسك •

ـ كيـف ؟

ـ لتكن انسانا آخر غيرك •

ـ وكيف يكون ذلك ؟

ـ أنت لا تصلح للمعيشة بيننا كما أنت •

ـ لمـاذا ؟

ـ الرفض بينا متبادل فاما ان تترك أرضنا وترحل واما أن تعيش مثلنـا •

ــ كيــف ؟

ــ سبق ان قلت لك ٠

ــ ولكنى لا أستطيع ٠

ــ مادمت لا تستطيع فليس من حقك ان تريد ٠

ــ لكن الجحر أمر حيوى لحياتى ٠

ــ مشكلتك أنك ترفضنا وتريد منا وفى هذا تناقض صارخ ٠

تبين لى صحة وجهة نظره فحاولت أن أركبه قليلا حتى أريح قدمى المتورمتين وأضــع عليه أسفارى وأحمالى وأواصل به الطريق، لكنه دفعنى بعنف من فوق ظهره فوقعت وتألمت وقمت وحاولت مرة أخرى وفشلت ٠ هددنى بعينيه وأذنيه حين تمكن منى ولما انتابتنى الدهشة ورفضت تصــديق ما يحدث فانه فاجأنى برفصــة قوية كادت تحطم ضلوعى فتركته وجريت هاربا الى بعيد ٠

أنا أطبل على المــائدة ومرسى يرقص على الموســيقا بينمــا يواصــل حكاياته على ايقاعها ومجموعة من الشباب حولنا تشاركه الرقص والتصفيق وبهجة غير عادية تستبد بالمكان دون مبرر ، ولقد أفقدتنى زوجتى صوابى فطردتها وعشت حرا بلا قيد ٠٠ ولكنى حزين على نفسى ٠ تقتلنى الوحدة ببطء ٠٠ ولا مفر من القيــام حالا للرقص مع مرسى على كل شيء ٠

- ٦ -

لم تصبح الثقة الآن محلا للأهمية فأنا أريد ان أستريح أولا وأخيرا ولو طارت منى تلك الثقة بلا أمل فى العودة ٠٠ ولقد تحدت الحبيبة أهلها بثقة عارمة لم تعرف لها هى الأخرى سببا ، وراحت

تنسج الآمال مع مرسى فأخذا يتحدثان عن المستقبل ويمشيان على البحر والنهر وفى الغيطان وكانا يشمان رائحة الزهر فى نشوة ما بعدها نشوة وقالا انهما سيبنيان مستقبلهما معا ويشقان طريقهما بالحب ، ولقد عولا على ذلك القول كثيرا وظنا ان الكون والحياة والناس لن يعترضوا طريقهما ٠ ولكن عند أول منعطف وجد مرسى نفسه فجأة وحيدا بغير أمل فتزوج على الفور بفتاة قال انها بنت حلال ومنكسرة ٠ والأدهى أننى اعتبرت الجحر من حقى والشبع والارتواء من حقى والنوم من حقى فقررت مواصلة السعى تحت اى ظروف لأننى لم أشأ أن أستسلم فى بساطة الى الموت ٠

قادتنى خطواتى الهائمة الى جحر يعلو عن سطح الأرض ٠ كنت قد رأيت جحورا عديدة مشابهة له من قبل أن يقبل مرسى مع حبيبته التحدى فتصدمه بخيانتها ولكنى لم اشأ أن أعرض روحى لقسوة المقارنة بين جحرى الذى لم أحصل عليه حتى الآن وبين تلك الجحور التى تعلو على الأرض ولا ارى لأصحابها أثرا ٠

كان البناء عاليا تحيط به الأشجار والأسوار وتتوسط مساحته نافورة تنبعث منها المياه فى اشكال دائرية تنعكس عليها ألوان جميلة لا تبين عن مصدرها ٠ تناثرت فى أرجاء الحديقة الفسيحة تماثيل عديدة تثير فى النفس كوامن الجمال والرهبة ٠ جلست تحت شجرة أحتمى بظلها ٠ أنعشنى رذاذ الماء المتناثر فى تلك البقعة ٠ وضعت رأسى بأكملها تحت مسقط مياه النافورة فشربت وغسلت وجهى ودب فى جسدى خدر لذيذ ٠ لماذا أكد واشقى وأمامى كل هذا الجمال ؟ ٠٠ ليكن جحرى ولو الى حين ٠

وجدتها تقف أمامى فى كبرياء لا يخلو من حنان ٠ فى عينيها نظرات قوية عارفة ، وفى ابتسامتها الصادقة كنز من خيرات الحياة٠ سألتنى كما لو كانت تعرفنى منذ سنين :

ـ هل راق لك المكان ؟

ـ بل عشقتـه ٠

ـ وأنا أيضا أهيم فى حبه ٠

ـ لقد عرفته وأحببته قبل أن أراه ٠

ـ وهكذا حـالى تماما ٠

ـ أهـو جحـرك ؟

ـ نعم ولكنه اغتصب منى ٠

ـ كيف ؟ ٠ الا تعيشين بداخله ؟

ـ اعيش بداخله اسما ولكنى لا أجرؤ على ذلك فعلا ٠

ـ ومن الذى اغتصبه منك ؟

ـ مجموعـة من الدجـالين خدعونى بالقـانون والعسـكر والبلطجيـة ٠

ـ وأين تنـامين ؟

ـ أنام فى كوخ صغير على طرف الجحر ٠

ـ ألا تشعرين بالخوف أو التهديد من أحد ؟

ـ أبدا ، فكلهم جبناء فوق ما تتصور ٠٠ لقد اكتفوا بصمتى٠

ـ ولكن معذرة فأنت مهددة بالفعل ، ان لم يكن اليوم فغدا ، على الأقل فى طعامك ٠

ـ انهم يلقون الى بفتـات موائـدهم ويعيروننى بذلك فى كل يوم ٠

ـ ما اســمك ؟

ـ بســتان ٠

ـ ما أجمل اسمك ٠٠ هل تأتين معى نبحث عن جحر آمن ؟

ـ لا أستطيع مغادرة المكان طالمـا بقيت على قيد الحيـاة حتى لو امرونى بذلك ٠

ـ فهل تسمحين لى بالبقاء معك ؟

ـ انا لا امانع ولكنهم لن يقبلوا ٠

ـ واذا تحديتهم ؟ !

ـ بمفردك لن تستطيع ٠

لم أكن مسلحا ببندقية لأننى لم افكر طيلة حياتى فى مثل هذا الاحتياج ٠ كان مرسى يمتلك مسدسا مرخصا ولكنه سرق منه فاشترى سيفا فصادروه فاخفى فى جيبه سكينا فأخذوه والقوا به فى البحر فانجب اربعة أطفال من فتاته المنكسرة رغم حرمانه الأبدى من وقت الفراغ ٠٠ ترددت قليلا ٠ أردت أن أقول لها شيئا فلم أستطع ٠ انتشلتنى من صمتى الحائر حين قالت :

ـ عليـك اولا أن تبحث عن زملائك الذين لم يهتـدوا ـ مثلك ـ الى جحر حتى الآن ٠

ـ ثم مـاذا بعد ؟

ـ لســت أعرف ٠

قالت عبارتها الأخـيرة بحدة ٠٠ خيل الى أنها غضبت منى ففكرت فى الاعتذار لها عن الحاحى وقلة حيلتى ولكنهـا تركتنى ومضت الى كوخهـا فى هدوء وانهار مرسى باكيـا على مشروعاته

الطموح التي تبخرت في الهواء ، بينما داعي لي أنه كان يبكي صديق عمره الذي قتـل في حرب لا معنى لها على أرض تبعد كثـيرا عن ارضنا التي نقيم بها جحورنا بشق الأنفس ٠

اختلطت الأمور على ذهني فجأة بحيث لم أعد أميز بين جحري المفقود والشارع اليوناني القـديم ٠ حاولت أن أخفف على نفسي شدة الصدمة فقلت انها حالة مؤقتة من فقدان الذاكرة تنتاب الفرد أحيانا لشدة اجهاده ولكن الذي حدث بعد ذلك أفقدني صـوابي واتزاني اذ لم أعد أميز بيني وبين مرسي ككائنين مختلفين التقيـا فجأة بعد ربع قرن من الزمان ٠ كنت أتصرف في حيـاتي أحيانا كما لو كنت انا وأحيانا كما لو كان مرسي ٠ استجمعت ارادتي وقواي العقلية بعد جهد عنيف من محاولة التركيز ورأيت أن الحل الأمثل ليطمئن قلبي هو أن التقي بمرسي وجها لوجه وفي مكان محدد أعرفه تماما حتى لا تكون هنـاك أدنى فرصة للخلط أو الالتباس ٠

٠٠ وكان رواد الملهى منفجرين في الضحك وهم يصفقون على أنغام الموسيقا وقد التفوا في دائرة من حولنا وانا ومرسي نؤدي معا في وقار شديد رقصة بلدية معروفة ٠

البديل الأوحد

دق جرس الساعة معلنا السادسة من صباح يوم جديد ٠ انتفض من نومه مذعورا ككل يوم ٠ ألقى بتحية الصباح العاجلة فى وجوه المخلوقات التى تعيش معه مدركا فى كل تحية أن هذا التعايش ـ ككثير من الأشياء ـ أمر واقع لا مفر من التعامل معه بأدب وان أمكن بحنان ٠ ارتدى ملابسه فى ارتباك معتاد وسرعة مألوفه ٠ العلاقة بين السرعة والارتباك أنشأت قانونا مطاعا وان استحال تفسيره ٠ لا مفر من انجاز النصف الأول من هذا اليوم ككل نصف يوم آخر من أيام الوجود التى ذهبت والتى ستجىء ٠ هو فأر فى الساعات الأولى من هذا النصف ٠٠ بعينين زائغتين يقرض لقيمات صغيرة ويجلس بضع قطرات من الشاى ثم يدخن سيجارة كالرجال ٠ يهرول بذيله متجها الى السلم فعربة الهيئة تنتظره أمام الباب ، والويل له من تكرار هذا الانتظار منذ آلاف أنصاف الأيام ٠

نصف حياة هى بمقياس ولا حياة بمقياس آخر ، أما أى مقياس هو الصحيح فهذا ما لم يعرفه حتى الآن ٠ ما أن تصل العربة الى الهيئة حتى يستحيل الى ذئب برى جارح ـ بعد دقائق يصير قطة وديعة ثم ذئبا فيستحيل فأرا ، وقد ينهكه تعاقب التحولات

حتى يصير فى بعض اللحظات لا شىء على الاطلاق ٠٠ يكاد لا يشعر بمجرد وجوده ٠ لا يعرف تماما لماذا كان عليه أن يكون آدميا يتعايش مع آدميين يستنفدون معه الأعمار يتكلمون ويتمنون ويتصارعون ويأكلون ويشربون وينامون وأحيانا يتحابون ٠٠٠ ومئات الأفعال الأخرى التى لا تنتهى أبدا ومنها على سبيل المثال هات ٠ خذ ٠ قل ٠ اكتب ٠ ادفع ٠ تعال ٠ رح ٠٠٠ ولكنه يعرف انهم فى معظم الأحيان كذابون ولهذا لا يجد بأسا فى ابتسامة تلازم شفتيه كى يستعين بها على نفسه ٠

* * *

أن تكون حياتى سلسلة من الهزائم المتتالية فهذا أمر يستحيل قبوله ٠ على اى الأحوال لابد من وقفة اضطرارية تتسم بالرزانة للتفكر فى هذه المسألة البالغة الازعاج ٠

كعادتى فى مثل تلك الوقفات تعريت من ملابسى وجلدى ونخاعى وتحولت الى سمكة ونزلت الى البحر لأرى موقعى من هذه المعضلة بمنظار مختلف ، وقلت ما دام الله خالقى ورازقى فلا مبرر للشعور بالسخف أو الانزعاج ٠٠ وما أروع لحظات الاتكال عند واع بوجوده لدرجة المرض ، اذ قال لى أحدهم محذرا بعد أن قدمت له قائمة مدونة بالهزائم المتتالية :

ــ لا تجهد نفسك اكثر من ذلك فأمراض الكهولة تطرق بابك٠

ــ ولكنى لم احقق شيئا من ٠٠٠

قاطعنى بابتسامة ساخرة وهو يقول ما يشبه التشفى غير المبرر :

ــ ليكن ٠٠٠ لست الوحيد الذى لم يحقق ما أراد ٠

ـ لا شأن لى بغيرى ، ولا بديل عندى عن المثابرة ٠

خاطبنى بلهجة تهديدية :

ـ أنت حــر !

وكان من الواضح أنه أراد :ن يقول لى :

ـ ان كنت تعرف البديل فلماذا تشكو الى هزائمك ؟ !

* * *

فى الرابعة من عصر اليوم نفســه ـ أو أى يوم ـ اوصلته العربة الى باب بيته ٠ نزل مسرعا ٠ فتح صندوق البريد ٠ قرأ الاسم فى دهشــة وكأنه يكتشفه للمرة الأولى ٠ لا جديد فى الأمر٠ عدد درجات السلم اربعون ٠ مفتاح باب الشقة صار ملمسه شديد النعومة ٠ تآكل منه جزء وفقد بريقه المعدنى القديم ٠ أحيانا يرفض الدخول فى مجراه وأحيانا يكتفى بالاستعصاء ثم يرضخ فى النهاية ٠ فى جميع الأحوال يفتح الباب عن جدران اربعة تحيط بفراغ يحتوى بعض الآدميين والأشياء ٠

يبدأ النصف الثانى من اليوم بالاستعداد للذهاب الى العمل الاضافى ٠ الوجوه البريئة داخل الجدران الأربعــة تمنحه نظرات حب مفزعة ٠ الشعور بمسئولية هــذا الحب يكاد يمزقه ٠ يتمنى أن لم توجد هذه الأرواح التى ساهم فى ايجادها من خلال ممارسات عاطفية ـ غير مسئولة ـ لم تتجاوز الواحدة منها أكثر من بضــع دقائق ٠ يتناول معهم الغــذاء ٠ يتحدث اليهم بحنــان بالغ وهو لا يتحدث ٠ يستمع اليهم باهتمام عظيم وهو أصم ٠ لا مفر بعد ذلك من استرخاء يدوم ربع الساعة ٠ يشرب كوب الشاى الكبير٠ يغير ملابســه ينزل أربعين درجة بجهد يعــادل جهد صعودها ٠

العمل الثـانى لا يوفر له غربة . يتجه الى الترام . يصـل الى مكتبه . يعمل من الخامسة والنصف حتى التاسـعة . فى طريق العودة ينام بالترام . مرة أيقظه الجالس بجواره وقال له انه كان يشخر بعمق كالنائم على فراشه بالمنزل . مرة أخرى قال له صاحب العمل انه يحسده على هذا الشخير لأنه ــ صاحب العمل ــ أدمن الأقراص المنومة .. بالجسد وبدونه يتجه كل شىء الى الزوال فيصل الى بيته منهكا ككل الأيام . الأطفال نائمون . يتساءل متى يجد وقتا لتربيتهم ، اذ قال خطيب منبرى مفوه ان هؤلاء الأطفال هم قادة المستقبل ، فتذكر أنه قد استمع من قبل الى عبارة غريبة قيلت له على سبيل التهديد : « أنت حر » !

❋ ❋ ❋

علقت حريتى فى ذيل آلتى الحاسـبة الكاتبة الضخمة ذات الذاكرة التى لا تمحى ، وجذبت زعانفى بشدة نحو فراغ أزرق لا نهاية لاتساعه المطلق . حين دقت أجراس الكون بآلاف الكلمات بملايين الأحرف وجـدت نفسى فى سـباق مع زرافات الأسـماك الهائمـة لالتقاط نصيبى من الرزق . كانت الأحرف كحبيبـات البطارخ وقيل الكافيار وقالوا ان الكائنات راحت تأكل نفسها فلم أجد ما أبحث عنه وصرت حوتا فى لمح البصر وعـلا هدير الأمواج فقالت لى احداهن :

ــ ادفع تحصل على ما تريد .

ــ ما معى دون المطلوب .

ــ اذن فليس من حقك أن تريد .

ــ بعد خمسة وأربعين عاما من الدأب والمثابرة ؟ !!

ـ ليست اعوامك مشكلتى • العبرة دائما بالنتائج • غيرك لم يكدح لكنه استطاع أن يريد •

ـ ياه ••• كم أنت ظالـمـه •

لم يفد شيئا من تحوله يبرر اصراره على التشبث بالحياة ، بل انه شعر بظلم يستبد به وظلام يكتنف الطريق أمامه حيث فرت مذعورة كل الأسـماك والحيتـان • ارتطم بصخرة فسقط منظاره وعجز عن رؤية اى شىء بالداخل أو الخارج فجمع ذيله وأمله وحريته وماله وزوجه وأولاده وجهوده المتواصلة وألقى بهم جميعا فى خيشومه الكبير وقفز فى يأس الى الأرض •

❋ ❋ ❋

ارتديت ملابسى وعدت الى قلبى أقاسمه الصمت والوحدة والوجوم ، وما الفائدة أن أريد أولا أريد ، وماذا يضيرنى لو أضفت هزيمتى أمام اليأس الى قائمة هزائمى بدلا من الاستسلام له دون قتـال ؟ !

لم يكن أمامى بد من اضافة عمر جديد الى عمرى • عمر يحتوى على السنوات والعضـلات والأفكار • يتنفس من رئتين ورديتين خاليتين من القطران والنيكوتين وأتربة المدينـة • يضخ دماءه قلب حديدى ينبض بحيوية الشباب وحكمة السنين فى آن واحد •• أما الابتسامة فلن أتنازل عنها حتى لو كانت تقطر حزنا •

❋ ❋ ❋

فى صباح اليوم التالى أسكت الساعة عندما دقت السادسة وعاود النوم • استيقظ فى الثامنة • أدى بعض التمرينات الرياضية وكان يطيل النظر فى اعجـاب الى أعضاء جسده ويبتسم بفرحـة

جديدة عليه . دخل الى الحمام وخرج منتعشا بفرحته ونظراتـه المستقرة .

لم يكن مخلوقا آخر غير نفسه . أطلق الفئران والذئـاب والكلاب بعيدا عن ساحته وقرر أن يستقيل من عمله الأول وأيضـا من الثانى . اجازة من الأيام المتشابهة طولها شهر بلا عمل ولا عربة هيئة ولا ترام ولا موظفين ولا حكومة ولا أصحاب أعمـال . لابد أن هناك عملا جديدا يختلف فى طبيعته عن العملين السابقين ، وفى أى مدينة اخرى غير هذه المدينة .

... جمع كل مدخراته وقرر تبديدها عن آخرها !

أمسك بقلم وورقة : تجديد أثاث المنزل أو مغادرته الى منزل آخر أو الى كوكب آخر لو أمكن . ملابس جديدة . رحلة بعيدة . مطاعم وفنادق . أصدقاء جدد . موسيقا وطرب ورقص وغنـاء وقراءة وتأمل ...

وجديد جديد جديد حتى ينتهى آخر جنيه من المدخرات واللعنة على سلسلة الهزائم المتتالية وقائمتها الكريهـة ... وليكن بعد ذلك ما يكون !

واقع الأمر انه لم يسب أمي ٠ لقد قال لي بالحرف الواحد :

ــ أتظن أنني أشتغل عندك يا روح أمك ٠

ولكني لم أستطع النوم ليلتها ٠ فاقت حيرتي طاقة سنواتي التسع على التفكير ٠ اذ لم أستطع أن أفهم لماذا يهينني انسان يخاطبني بهذا الاستعلاء والاحتقار ٠ كل ما فعلته انني ناديته بعفوية ٠

بهذا الاستعلاء والاحتقار ٠ كل ما فعلته انني ناديته بعفوية ٠

ــ بس ٠٠ بس ٠٠ ٠

لم أجد وسيلة غير هذا النداء لألفت نظره الى وقوفي الطويل امامه ومعي العينة دون أن يلتفت الي رغم رؤيته لي ٠ لم أكن أعرف اسمه أو درجته الوظيفية حين طلبت منا المدرسة تقديم شهادة طبية تفيد بخلونا من البلهارسيا والانكلستوما ٠ كان يجلس في نهاية المعمل الأميري العام يدخن سيجارة ، وكنت واقفا أمام شباك العينات ٠

حين قال لي تلك الكلمات شعرت بكياني يرتج بقوة وخفت منه خوفا شديدا ٠ كان ألمي عظيما ولكني لم أعرف ماذا أفعل

معه ، فقد حرمت على أمى مجـادلة الكبار وأوجبت على احترامهم وطاعتهم • سحب من يدى العينة بعنف والقى بها فى الحوض وعاد الى مقعده وأخذ يهمهم بكلام غاضب لم أسمعه •• وانصرفت •

كنت أمشى شاعرا بالدماء تنزف من قلبى الصغير دون أن أجد سبيلا لايقـاف هـذا النزف • وفى المنزل لم أعرف كيف أوجـه السؤال الى صورة أبى الراحل •

ــ لمـاذا أهـان ؟ •

فى لحظة كومض البرق رأيتـه يبتسم لى من داخل اطـاره الفضى • مازلت أذكر معالم تلك الابتسامة بمكوناتها الدقيقـة • لم تكن تنم عن اشـفاق أو مودة بقدر ما كانت تنم عن طمأنينـة توحى الى النفس بثقة راسخة ما لبثت شحنتها الغامضة أن انتقلت الى روحى فاستقرت بها •

❊ ❊ ❊

فى هدوء سحبنى الأستاذ شنوانى من الفصل • أعطانى قرشين أجرة المواصـلات ووصف لى مكان النادى الذى تقـام به مسابقـة المدارس لسباحة المسافات القصـيرة • شد على يدى مودعا وهو يؤكد لى أنى سأفوز بالبطولة • تعجبت لطيبة أستاذى وقوة يقينه الغريبة • أهمل زملائى المرشحين للمسابقة جميعا وجاء يبحث عنى وقد اختفيت داخل الفصـل غير عابىء بالاشتراك فى المسابقة التى يتقاتلون عليها كل عام •

فى النادى أصابنى ارتباك شـديد ، فهى المرة الأولى التى أرتاد فيها محفلا اجتماعيا بهذه الفخامة والأبهة • بصعوبة بالغـة استجمعت ارادتى واهتديت الى مكان السباق حيث أبلغنى المختصون بموعده • لم أجرؤ على الانتظار فى أى مكان من الأماكن العديدة

المتناثرة بأرجاء النادى والتى يقوم على خدمة روادها رجال يلبسون الأزرق والأصفر والأحمر ويقدمون لهم الطلبـات مصحوبة بانحناءة واضحة لم أتبين سببها · انتظرت أمام حمـام السباحة · جلست ارقب رواد النادى وكأننى أشاهد قوما من كوكب آخر لا يتحدثون باللغة التى أتحدث بها ·

لم يعبأ مخلوق بوجودى على الاطـلاق ، ولا حتى الطلبـة المشتركين فى السباق من المدارس الأجنبية والذين كانوا يرتدون ملابس رعاة البقر · فى غرفة الملابس تحدث بعضهم بالفرنسية · لم أشعر بقدر من المساواة معهم الا بعد أن خلعنـا ملابسنا وبقينا بلباس الاستحمام · عندما رأيت أبى شعرت بشىء من الاطمئنـان

فسألت نفسى بصوته الذى لم أسمعه :

ــ لمـاذا تخـاف يا ولد من هؤلاء النـاس · أليسوا بشرا مثـلك ؟ ·

حمت حولهم مرة ثانية · سمعتهم يطلبون أطعمة لم أسـمع يوما باسمها فازداد خوفى منهم وانسحبت بعيدا على استحياء ·

حين أطلقت اشـارة السباق وجـدت نفسى منطلقا فى المـاء كطوربيد بحرى كاسح ، وكانت أمى تحتل ذاكرتى فى تلك اللحظات وهى تدعو لى قائلة « ربنا يحرسك » ·

فى لمح البصر رأيت حال الدنيا ينقلب أمامى الى النقيض ، فالجميـع أحـاطوا بى وراحوا يقبلوننى ويلتقطون لى الصـور الفوتوغرافية ويمطروننى بعبارات التهنئة لفوزى ببطولة السباق · وحين عدت الى بيتى القابع فى حارة ضيقة بمواجهة البحر ، كانت سعادتى تفوق الوصف بالمرة الأولى فى حياتى التى أذوق فيها طعم

الانتصار ، لكن شعورا غائرا فى اعماقى كان يشوب فرحتى ٠٠ لقد كنت خائفـا ٠

* * *

أراسل فتاة فنلندية جميلة فى مثل عمرى ، اتواصــل معهـا بمخلوقات الله الأخرى عبر المحيطات ، فملكه يستهوينى باتساعه وغموضه وسحر عظمته ٠ ٠ متعتى بالغة وأنا اكتب لها بالانجليزية فتقول لى أن لغتى رائعة وتفوق لغتها بكثير ٠ تأخرت خطاباتها زمنا طويلا وكنت أرى الســاعى يســلم الخطــابات لبعض الطلبــة ، ويوما ســألته :

ـ الم يصلنى خطاب من الخارج يا عم منعم ؟

ـ لا أعرف ٠ عندك مكتب البريد بالكلية ٠

أخاطبه مخاطبة العم ٠ أحبه ٠ أتعاطف مع شيخوخته التى لم تحظ بالراحة ٠ لمــاذا يعاملنى بهذا الجفاء ؟ ٠ ذهبت الى مكتب البريد فوجدت خطابين يحملان اسمى وقد وصــل احدهما منذ اسابيع ٠ عدت اليه أسأله بنفس حيرتى أمام الرجل الانكلستومى البغيض ٠

ـ لمــاذا لم تحضر لى رسائلى كبقية الزملاء ؟

ـ لأن يدك مغلولة ٠

هكذا أطلقها صريحة فى وجهى بلا حياء ٠ أما الحقيقة فان يدى لم تكن يوما مغلولة ، وانما كانت فارغة رغم أنفى ٠٠ دائما فارغة ٠ لهذا دهشت ، ثم تعجبت لدهشتى التى لا تنتهى دائمــا الا بالشعور بالخوف ٠٠ لكنى لم اكن خائفا هذه المرة من عم منعم ، بل كنت خائفا من اشياء أخرى ٠

قرب الفجر انتفضت من فـراشى مذعورا لا اصـدق عينى وقد سال من فمى لعاب كثير • رايت عم منعم يقف أمامى • يضحك مقهقها بشدة يهتز معها جسـده النحيل ، فتتساقط من جيوبه ومن طيات ملابسه المهترئة مئات الجنيهات ويتساقط معها جلد وجهه وبعض من ضروسه ثم يصرخ فى وحشية قائلا :

ـ اكنت تظننى فقيرا يا دكتور ؟؟

حين اقترن خوفى بضياع فرحة العمر ورعشة القلب وصفاء الأيام ، رايت الحيـاة شيئا مفزعا لا يطاق •• تفوق قسـوته على الروح بشاعة انشطار جسدى بفعل قنبلة من قنابل الجبناء • أودت بى النكسـة الى لهيب سيناء • كنت أتحرق شـوقا الى الانتقام من هؤلاء الأنجـاس الذين يستحلون لأنفسـهم اغتصـاب الأرض والحياة وبقر بطون الحوامل وتكسـير أذرع الأولاد والقاء أصحاب الدار فى السجون • بعثت بخطاب الى عادل أذكره بأيام طفولتنا الرائعة حين كنا نصطاد السمك معا ونلعب الكرة فى الزقاق ونذاكر الدرس فى حديقة الملك • قلت له ان « العادل » اسم من أسـماء الله الحسنى ، ولهذا فانا على يقين من انتصارنا على الصهاينة • لم اكتب خـلال فترة تجنيدى الا لثلاثة : أمى وحبيبتى وصـديق طفولتى الذى يقول لى فى كل خطاباته انه يرى العبث يسـود أرجاء الدنيا •• وبعد ذلك طالت غيبتى •• وقال صهرى لعادل « الذى يفوقنى علما ومالا ووسامة ويعلم ما بينى وبين حبيبتى » :

ـ سوف لا أتكلم مع أحد بهذا الشأن الا بعد حصـولها على البكالوريوس •

انصرف عادل سعيدا يحدوه الأمل فى اغتصاب أرضى وحياتى وطمـأنينتى وخوفى • وفى اليـوم التـالى تركت حبيبتى أوراق امتحاناتها بيضاء ناصعة ، فلم تخط بها حرفا حتى تضمن رسوبها

عن جدارة ، لحين عودتى اليها • وفى تمام السادسة من مســاء الخامس من نوفمبر ١٩٧٣ تحقق يقينى ثم تزوجنا فتحقق للمرة الثانيــة •

* * *

لقاء مقابل مادى كبير وافقت على العمل كمستشار بمؤسسة دوائية عالمية • اشترطت على رئيس المؤسسة الاستعانة بزميل لى كنت أعلم أنه بحاجة ماســة الى عون مادى عاجل ليواجه به ازمة طاحنة ألمت بحياته فجـأة ، وكانت بداية العمل جولة طويلة فى بعض البلدان الأوروبية •

قبل اقلاع الطائرة بقليل ظهرت عقبة ادارية مفاجئة تتعلق بجواز سفرى اذ كان يخلو من تأشيرة تفيد بانتهاء خدمتى العسكرية• ثار الرئيس على المسئولين بالمطار اذ تجاوز سنى تلك المرحلة بعدة أعوام ، واتهمهم بالبيروقراطية والتعنت • سافرت البعثة بدونى على أن الحق بهم بعد استكمال اجراءاتى •

بعد مرور يومين ساور القلق الرئيس فراح يجرى اتصالاته من لندن بمقر مؤسسته متعجلا قدومى ، حين قال له زميلى بابتسامة عرفت فيما بعد أنها كانت صفراء اللون :

ــ لماذا تعتقدون كل هذه الأهمية على قدومه بينما يمكنكم الاستغناء عنه بوجودى ؟

عندما لحقت بهم فى فرنسا انتحى بى الرئيس جانبا وقال لى بأدب شديد فى لهجة تشبه الأمر :

ــ اسمح لى لقد أعفيت زميلك من العمل معنا مستقبلا •

فى رحلة العودة تعمـدت أن أجلس الى جـواره فى مقعـد الطائرة . كنت فى غاية الحزن لأجله والرثاء لحاله بقدر ما كنت فى غاية الذهول لهذا السلـوك من جانبه ، أما الغضب فقد أجلته. خيل الى انه سينهار على مقعده لحظة مواجهته بتنازله عن انسانيته بلا مقابل ، لكنه ابتسم ببرود قائلا :

ـ صدقنى .. لم أكن أقصد شيئا يسىء اليك .

حين صافحنى شعرت ببطن صرصار كبير خارج لتوه من بالوعة عفنة يزحف فى لزوجة على يدى ، فكان شعورى بالخوف ممتزجـا بشىء من التقزز .

ويوم عاد من العراق محفوظا فى تابوت خشبى بلا تقرير طبى يفيد بسبب وفاته ، بكيت عليه وعلى عروبتى ودنياى .

* * *

رن جرس التليفون ذلك الرنين الطويل المتواصـل ، المبشر المنذر . سمعت نسمة الفجر دقات قلبى المتلاحقـة ، المحيرة بين الرجاء واليأس . رفعت السماعة فسمعت صوته الشـاب يتفجر حماسا وحمدت الله . يحـدثنى من « حفر الباطن » .. اطمئن يا خـالى . أوشكت مهمتنـا على الانتهاء . سنعود سالمين باذن الله . بعد ان وضعت السماعة هاجت فى كيانى ذكرى أمه الراحلة.

... مصطحبا طفلى الصغير ، مررنا ـ قبل عامين ـ أمام المستشفى . كان مساء حزينا صامتا ، وبدا المستشفى تحت أضواء قناديله كبقعة من الخوف هائلة .. حين سألنى ابنى ببراءة .

ـ الن نزور العمة نادرة يا أبى ؟

لم أكن قادرا على ذلك . عاجز أنا عن رؤية شقيقتى ذات

الوجه الجميل والخلق الأجمل ، وهى تصـارع المرض اللعين . صممت ألا أزورها الا فى بيتهـا بعد خروجهـا من المستشـفى . قلت له :

ـ قريبا ان شاء الله سأشترى لك باقة من الورد واصحبك الى منزلها لتقدمها لها .

وحين رحل ذلك المساء الغائم ليفسح الطريق الأزلى أمـام فجر جديد ... ماتت نادرة .

اليوم أبلغ الثامنة والأربعين .. متأملا فى هدوء أرقب انكماش عضلاتى وشهواتى وفتور طاقتى على العمـل . أعرف جيدا ان ما بذلته من جهد مضن خلال تلك الأعوام قد أرهقنى تماما ، ورغم هذا فمعظم أحلامى لم تتحقق .. وعزائى فى هـذا اننى لم افقد حتى اليوم دهشتى من الأشياء ، فيما عدا الموت والرزق و .. بس بس والتابوت العراقى ويقين الأسـتاذ شنوانى وكأس البطولة وخط بارليف وورقة الامتحان الفارغة من الاجابة ودعاء أمى وباقة ورد لنادرة وصـوت ابنها وهو يحـدثنى عن الخـراب والدمار وآبار البترول المشتعلة والنساء التى اغتصبت والأطفـال الذين ماتوا جوعا وزميـل مددت له يدى ، فما معنى أن يتخلى انسـان عن نفسه .. فيكبر ابنى وأراه يراسـل الأصـدقاء هو الآخر عبر المحيطات فأتأمل بكل ما أوتيت من قدرة على التركيز هـذا العالم المرتبك الذى ينتظره وأتساءل ترى هل ينجح فى مواجهته ؟ ..

جاء اليوم يسألنى :

ـ أبى .. لمـاذا تعيرنى صديقتى الألمـانية بأننى من العالم الثـالث ؟

* * *

ملفــات المواطن عبد الصــبور

كلفت بتقديم تقرير تفصيلى شامل عن كل ما يتعلق بحيــاة المواطن عبد الصبور الجلاد ٠٠ منذ ولدت وحتى هــذه اللحظـة يكلفوننى بأشــياء ، ويقــال أننى ســوف اكلف بأشــياء أخرى بعد الموت ٠

قدموا لى العديد من ملفاته التى استطاعوا الحصــول عليهــا من كل مكان دبت عليه قدماه الكليلتان ٠ لابد أنه رفض التكليف أو أبدى وجهة نظر مخالفة يعتقد أنها أكثر حكمة وعدلا ٠

سألت نفسى عن أهمية هذا العبد الصبور فعلمت أن مسألته تعالج فى سرية تامة وتكتم شديد مما أثار فى نفسى فضــولا شديدا تجاهــه ، ممتزجــا بالحرص والتوجس ، كالحكمــة والعــدل عند عبد الصبور قد تتعارضان مع نظيريهما عند عبد الستار ، ولا مجال هنا لتعارض أو اختلاف ، فعلى الجميع أن ينفذوا ما يكلفون به والا نضب البترول وعدنــا الى عصر الجمــال وابتلعتنــا الرمال المتحــركة !

ابتســم كبير الحراس فى وجهى لأول مرة ٠ أمر بوضــع منضدة أمامى ثم أعطانى كراسة وقلما وقال بتودد كريه :

ـ اكتب يا أستاذ ٠

ثم ألقى أمامى بعلبة سجائر تظاهرت بأننى لم ارها رغم أننى كنت بشوق حارق الى تدخين سيجارة ٠ تعجبت لهذه المهمة التى القوا بها على كاهلى كمـا لو كنت واحدا من رجالهم ، ولم أفهم فلسفتهم القابعة خلف هـذا المطلب الغريب ٠٠ وأمام تودده هـذا تجرأت فطلبت فنجانا من القهوة فولعى بالحياة لا يختلف كثيرا عن استهتارى بالموت ٠ أجابنى الى طلبى ثم أغلق على باب الزنزانة الحديدى وانصرف واضعا ذيله الطويل فى فمه ٠

انفجرت فى الضحك حتى دمعت عيناى ٠ ما الذى جاء بى الى هنا هذه المرة واى جناية ارتكبت ولمـاذا لم يحقق معى أحد ، وكيف اكون متهما ومصـدر ثقة فى آن واحد ؟ ! ٠٠ وأخيرا قلت لنفسى انهم يعانون بلاشك من نقص فى العمالة المدربة على كتابة التقارير عن أمثالى من المتهمين الأبرياء ٠

بشراهة الدنيا دخنت السيجارة وشربت القهوة وأكلت راسبها البنى المحروق ، حين اقتحمتنى لحظة سعادة حقيقية سبق أن شعرت بمثلها عدة مرات فى وطنى الحقيقى قبل أن يزجوا بى الى هـذه الزنزانة ٠٠ وفتحت الملفات فى شغف !

٠٠٠٠ عبد الصبور ياسين الجـلاد ٠ من مواليد ١٩٤٠ ٠ عربى ٠ مسلم ٠ متزوج ويعول ثلاثة أبناء ٠ فصيلة الدم« أ ـ ب » محل الميلاد والمهنة مكشوطتان بفعل فـاعل ٠ مهنة الأب عامـل باليومية (ظهورات) ٠ اسم الزوجة أنيتا أندرســون ٠ سويدية المولد ٠ لا تدين باليهودية أو المسيحية أو الاســلام وانما تدين بهم جميعا فى آن واحد ٠ شقراء رائعة الجمال كما تبدو فى صورتهـا الملونة ٠ عيناها تنفجران بالأمومة ، أما روحها فشرقية خالصة ٠

ملامح وجه عبد الصبور « فوتوجينية » مبهرة ٠ الأنف طويل بارز مفلطح دون مبالغة ٠ الشفتان تجمعان بين الغلظة والتدبب والعينان تشعان بريقا مذهلا يوحى بالانتصــار على الحياة ٠ على الوجه ابتسامة طفل كبير تكشف عن أسنان ناصعة البياض ٠ خيل الى للحظة عابرة أن هنـــاك تشابها ملحوظا بين صــورته وبينى ٠ تتداخل تعاريج الزمن على هــذا الوجه فى خطوط تضفى عليه سحرا غريبا جذبنى اليه بشدة وجعلنى أمعن فى تأمل صــورة هذا الكيان الانسانى المطــارد باهتمام المسئولين فى كل زنزانة أزج بهــا ٠٠ تساءلت هل وراء اهتمام المسئولين فى هذا الوطن بعبد الصبور ثواب أم عقاب ، ورحت أختبر فراستى للمرة المليون وأراهن على حدسى فقلت من البداية ان هذه الابتسامة لا يمكن أن تسفر عن ضمير مدنس أو نفس شريرة ، لكن العلاقات الغامضــة المتشابكة بين مهنة عبد الصبور المكشــوطة ومهنـــة أبيه ، وبين جنسيته غير المسجلة وجنسية زوجته ، وبين اسلامه والحادها (البعض يرون فى اعتناق الأديان الثلاثة الحادا) أثارت فى ذهنى تساؤلات عديدة جعلتنى غير قادر على الجزم بشىء ٠

فى زنازين البلاد الأخرى اكتفوا بالسؤال عن عبد الصبور ، أما هنا فأوراقه أمامى وهنـــاك تقرير مطلوب ! ٠٠

استبدت بى الدهشة وأنا أقرأ ملفات هــذا الرجل ، حين تذكرت وظيفة أبى الراحل (عتال) وزوجتى التى لا تنتمى الى وطنى الأصلى وفصيلة دمى التى هى أيضاب أ ــ ب ٠٠ وقلت لنفسى انها مجرد مصادفات غريبة وواصلت قراءة الملف ٠

جمهورية ٠٠٠ الملكية ٠ جامعة ٠٠٠ بعد الاطلاع على نتيجة الامتحان بكلية الحقوق قرر مجلس الجامعــة بتاريخ ٠٠/٠٠/١٩٦٧ منح عبد الصبور ياسين الجلاد بن ياسين الجلاد المولود فى ٠٠٠٠

عـام ١٩٤٠ ميـلادية درجـة الدكتـوراه فى القـانون وموضــوع الرســالة ....

توقيعات العميد والمدير ورئيس الجامعة والوزير ... كلهـا مكشوطة مثل اسم البلد والجامعة وموضوع الرسالة .

رحت أتصفح أوراق الملفات عشوائيا وكأنما أبحث عن شيء أعرفه .. توقفت أمام ورقة مدموغة ومكتوبة بخط يده حاملة فى ذيلها توقيعه الأنيق بتاريخ بداية التحاقه بالجامعة ... « السيد الأستاذ الدكتور عميد الكلية .. تحية طيبة وبعد ، فرغم تمتعى بالاعفاء من المصروفات الجامعية الأساسية بسبب تفوقى فى الشهادة الثانوية الا أننى أرجو من سيادتكم التكرم بالنظر فى اعفـائى من الرسوم الأخرى غير الخاضعة للاعفاء وقدرها ثلاثة جنيهات وخمسة وسبعون قرشا ، حيث أن والدى لا يستطيع الانفاق على تعليمى.. وانى أعدكم يا سيدى بتسديد قيمة تلك الرســوم للجامعــة فور تخرجى والتحاقى بأى عمل فى أى وطن وتفضلوا بقبول وافر العرفان والتقدير والامتنان » .

منذ ما يقرب من ثلاثين عاما عجزت أمى عن تدبير مصروفات التحاقى بالجامعة وخيرتنى بين الاكتفاء بشهادتى الثانوية والتحاقى بعمل حرفى أنفق من ايراده على تعليمى الجامعى فاخترت الثانيــة وتعلمت النجارة وواصلت دراستى بنجاح .

عثرت بالملف على حيثيات تحقيق أسفر عن براءة عبد الصبور من الاتهام الموجة اليه بعد اشتباكه فى نزاع عنيف مع طالب عربى عقب أحـداث الانفصــال بين قطرين عربيين متحـدين . كانت اجاباته على المحقق لاذعة متفجرة بالثقة مشحونة بالوعى الحاد ، فعبد الصبور لا يرى بديلا عن الوحدة الشاملة لانهاء ما أســماه بالمهزلة العربيــة الكبرى .. وكنت قد اشتركت فى مظاهرة طلابية

ثائرة عقب اغتيال باتريس لومومبا حيث تسلقت مع زملائى باب القنصلية البلجيكية فنزعنا العلم المعدنى البلجيكى من عليه والقينا به فى عنف الى الأرض قبل أن يداهمنا البوليس .. لكن احدا لم يحقق معى أو مع غيرى من المتظـاهرين . غير أن رجلا اجنبيا سبنا ووصفنا بالتخلف ، ولمـا طلبت منه أن يكف عن سفاهته راح يسخر منى بانجليزية ركيكة ، ثم صفعنى على وجهى فنطحته برأسى فنزف الدم غزيرا مثيرا من فمه وفر من أمامى مذعورا كجرذ . وبعد ذلك بأعوام طويلة حصلت على شـهادة الدكتـوراه ونسيت تلك الواقعة تماما فلم أتذكرها الا مرتين : الأولى ذات مساء عندما اقترب منى هيكل انسان عظمى يماثل فى طوله طول ذلك الأجنبى ، حين تراجعت فزعا لكنه تجاهلنى وجلس على المقعد المجاور لى وأمسك سماعة التليفون بيسراه العظمية واخذ يدير قرصـه بيمناه عدة مرات ثم قال لمحدثه المجهول :

ــ اطمئن . مخططاتنـا تحقق المزيد من النجـــاح . الدم للركب !

أما الثانيـة فهى الآن بينمـــا أسـتعد لقراءة ملف جديـد لعبد الصبور الجلاد .

تفيد التقارير الدورية للدكتور عبد الصبور بامتيازه الدائم منذ التحاقه بالعمل فى المؤسسة الدولية وحتى تاريخ اختفائه وقبل أن يظهر بوضــوح فى مكان خطير وبصورة لاتمكن أحدا من التخلص منه الى الأبد . رغم ذلك فملفه ملىء بالبلاغات الكيدية المقدمة ضده من اقرانه . يقولون انه عنيد متغطرس لا يعرف غير العنف وسيلة للتفـاهم ، كمـا أنه لا يعلق صـورة رئيس الجمهوريـة الملكيـة الاشتراكية الديموقراطية فى غرفة مكتبه طبقا لتعليمات البلاد التى يقيم بها بل يستبدل بهذه الصورة صورة طبيعية ملونة لأشجـار الأرز فى قرية لبنانية .

قال فى كلمته أمام جمع غفير من العاملين بالمؤسسة (الفرع العربى) فى احدى المناسبات أن سمة المجتمع الفاشل الرئيسية هى محاربة النجاح والتميز ، أما المجتمعات المتحضرة فان النجاح ينتشر فيها كما تنتشر العدوى الوبائية ٠٠ وبعد أن انتهى من كلمته هتف الحاضرون فى آلية جامدة :

ـ الله أكبر والنصر للعرب ٠

ثم انصرفوا الى نسائهم ٠

وفى تحقيق ادارى مع زميل له ـ كان آخر من حادثه قبل اختفائه ـ ورد النص الحوارى الآتى :

ـ ما الذى جرى لك يا عبد الصبور ؟

كانت أحواله فى الآونة الأخيرة تدعو الى الدهشة اذ تبرع مرة براتبه الشهرى لمجاهدى أفغانستان ، وبعد ذلك بعدة أسابيع طلب سلفة من الخزانة ، وأخيرا فانه امتنع عن الكلام ٠

ـ لا شىء ٠

ـ لقد صرت مخلوقا آخر غير عبد الصبور الذى نعرفه ٠٠ لماذا ؟

ـ ليس لكل شىء سبب ٠

ـ لعلها أزمة وتزول ٠

ـ وما قيمة زوال أزمة أمام زوال صاحبها ؟ !

ـ لكنك جالس أمامى حفظك الله ٠

ـ عيونى ٠٠ انها تهيؤات ٠٠ الله يعطيك العافية ٠

وقال زميله للمحقق :

ـ بعد حديثنا هذا بأيام قلائل لم أره بالمؤسسة مرة أخرى ٠

٠٠٠ ازدادت ضربات قلبي وشعرت بذهني مشوشا حين تذكرت احتداد رئيسي الأعلى في غرفة مكتبي عندما لمح صورة مكبرة لعملة الجنية الفلسطيني القديم معلقة من خلفي ٠

ـ لماذا لا تعلق صورة القائد الملهم الزعيم الملك الرئيس المفدى حفظه الله ورعاه ؟

ـ ألا تكفيك صورهم وتماثيلهم ، في كل الشوارع والميادين والأزقة وقمم الجبال ؟ !

ـ مادام الأمر كذلك فلن انظر في طلب السلفة التي تقدمت بها ٠

وقلت لنفسي انها مجرد مصادفة أخرى وان كانت تدعو الى الدهشة ، ولكن الذي حيرني في تلك اللحظة هو اصرار عبد الصبور ـ كما ورد في الملف الخامس ـ على الزواج من السويدية رغم معارضة الأهل والأقارب من الطرفين ، لكن عبد الصبور يعترف بأن هذه السيدة كانت مثالا للزوجة المخلصة الوفية التي تعرف كيف تدفع برجلها الى الأمام حتى لو انتهى به الأمر الى الحبس الانفرادي في زنزانة صغيرة مظلمة تعزله تماما عن ماضيه ومستقبله وأحضان أنثاه وقبلات أبنائه ٠

يقول عبد الصبور ـ بعد ان استشهدت زوجته في عملية فدائية جريئة تولت قيادتها دون علمه ـ أنه كان مصريا في ذلك اليوم ٠٠ « لم أستطع السيطرة على أعصابي تجاه التعليمات الصارمة بعدم اطلاق النار ٠٠ لقد استمرا ذلك الجندي الاسرائيلي سبنا والسخرية منا يوما بعد يوم ، الى ان جاء ذات مساء بفتاة وخلعا ملابسهما ونزلا عاريين الى القناة وراحا يسخران مني بصفة

خاصة حين تعالت ضحكاتهما الماجنة تهتك الصمت الموحش المطبق على أنفاسى لدرجة الموت ، ثم خرجا من القناة وتضاجعا على رمال الضفة السليبة ، فما أن وقفا حتى اطلقت عليهما النار فسقطا على الفور ٠٠ وأنا جاهز للمحاكمة العسكرية معترف بعصيانى للأوامر ومستعد لتحمل أقصى عقوبة ممكنة » ٠

فوجئت بكبير الحراس يقف امامى وقد استبدل برأسه كرة أرضية تدور حول رقبته بلا توقف :

ــ هاه ٠٠ هل انتهيت من كتابة التقرير ؟

قلت له ساخرا دون أن ينتابنى الفزع :

ــ لم أنته بعد من قراءة الملفات ٠

تلاشت ابتسامته وقال لى محذرا بكل ما أوتى من غباء فى راسه الدائرة :

ــ أمامك ثلاث ساعات فقط ٠٠

منذ عدة أعوام اتخذت لنفسى سكنا مؤقتا بحى رشدى بالاسكندرية حتى أنتهى من أداء بعض المهام المهنية لأعود من بعدها الى مقر المؤسسة فى وطنى الثانى أو الثالث أو الرابع أو المائة ٠٠ كنت مصرا على رفض التفتيش الذاتى كلما غادرت منزلى أو عدت اليه ، فالقنصل الاسرائيلى سكن فجأة فى الطابق الأعلى للبناية ٠٠ انقضوا على فى مهارة يحسدون عليها وأحاطوا بى من كل جانب ٠ لم يعتد على أحد بالقول أو الفعل وانما قال كبيرهم باحترام شديد :

ــ اعددنا لسيادتك جواز سفر خاص ٠ جهز حقائبك ٠ أمامك ثلاث ساعات فقط ٠

ـ ولكنى لم أنته بعد من مهمتى بمصر .

ـ عليك باستكمالها فى بغداد .

فى بداية الأمر كان فضولى عنيفا من يكون هذا العبد الصبور الجلاد الذى أحببته بشدة ، أما الآن فان تساؤلا جنونيـا أصبح يفرض نفسه حتى الموت على حياتى الحاضرة :

ـ من أكون ؟ !

* * *

الممنـــوع والمســـموح

● **المقدمـــة :**

فجأة وجدت قلبى واقفـا على برج عام جديد ليس ككل الأعوام ٠ من فوقه سحابـة ملونة ومن خلفـه تاريخ لا يعود ولا يتغير ، ومن أمامه تلال من علامات الاستفهام تتحداه أن يعرف عم يسأل أو بماذا يجيب ٠٠ وان دق أو توقف فهذا قراره وحده ، ذلك الكائن العضـلى القابض الباسـط ذو الأنسجة والأوردة والشرايين ٠ أما أنا ـ مالكه الوحيد ـ فلم أعد منذ عدة ساعات أملك من أمره شيئا ٠

وكنت أرى الدنيا تسير من تحتى سيرها الفوضوى الطبيعى ، فأتصـور أننى واحد من عقلاء هـذا الزمان يبحث عن مفقوداته الغالية فلا يجدها ٠

لقد أبرق لى مع بداية وقفتى بانذار شفرى عاجل ينبهنى الى أنه قد حل به التعب لطول نبضـه بلا انقطـاع على مدى تسـعة واربعين عاما وأحد عشر شهرا وتسعة وعشرين يوما ٠ أخبرنى انى أجهدته كثيرا ، وأنه قد لا يستطيع تحمل المزيد فيما تبقى أمامى من طريق السفر ، بل انه قالها لى بصراحة :

ـ ارحمني ٠

ولقد كنت اود ذلك حقا ، لكنما يؤلمني أن قدرتي على رحمته مرهونة بغياب وعيي وتبلد مشاعري وانخـلاعي من كل ما حـدث ومما قد يحدث وما سوف يحدث ٠٠ فكيف أعفي نفسي من شهقة حنين او لوعة فراق او دمعة عجز امام علامة استفهام واحدة ؟ ٠

❋ ❋ ❋

● **المنوعــات :**

١ ـ انت ممنـوع من الدهنيـات والنشـويات والسجائر والقلق والمجهود الذهني والبدني بأنواعه ٠

٢ ـ انت ممنوع من تغيير سكنك وعملك وأمك وأبيك وزوجتك وابنائك وحكامك ٠

٣ ـ انت ممنوع من العزلة عن البشر وكذلك من الاندماج معهم لدرجة التفاعل المؤثر سلبا أو ايجابا ٠

❋ ❋ ❋

ومن عل أرقب مباني مدينتي الظالمـة وقد تضاءلت وانكمش حجمها فبدت وكأنهـا عاجزة عن تحمل واستيعاب واحتواء ما يمور بداخلهـا من تقوى هي الدنس ، وكذب هو الصـدق ، واسـلام هو الحل ، وتخمة هي الهزال ، وضجيج هو الصمت ٠ أما الزاهد في الصراع فعقوبته الجلد حتى الموت ٠

فكرت باخلاص شديد أن أقفز من أعلى البرج لا منتحرا ، وانما راقصـا مصفقا في ليلة انس استقطر فيها متع الدنيا بنسائها الخمريات والبيض والسمر وبقناطيرها المقنطرة من الذهب والفضة،

جنيهـات ودنـانير ودولارات ٠٠ أطـوف بنيويـورك والبوسـنة والاسـكندرية وبيروت وفلسـطين وارى بطرس غالى حاكم العالم ، والاسحاقين شامير ورابين حاكمى العرب ، والشيخ الضرير حاكم المسلمين ، والقى بنظرة على أطلال العراق المدمرة ٠

لكنى تراجعت متخـاذلا عن القفز خشـية أن يتهشم عظمى وتفارقنى روحى ٠ تغلبت على نزعـة حب الحيـاة رغم قائمـة الممنوعات ٠ غير أن تراجعى لم يكن نهائيا ، فأخذت أمشى مترددا فى حركة دائرية حول سور البرج ، حتى لفت منظرى انتباه بعض السائرين على الأرض ، فتوقفت قليلا أرقب ردود افعالهم ٠

* * *

● **المسـموحات :**

١ ـ اسمع واسكت ٠

٢ ـ اذا اردت أن تتكلم أو تكتب او تشكو فلن نمنعك ولكن سننقصك بعض الدرجات ٠

٣ ـ هاجر الى حيث شئت غير مأسـوف عليـك ولا على أهـلك ٠

* * *

قال طبيب انه داء القلب ، وقـال آخر انها حالة نفسية ، اكد كل منهما على صحة قائمته ـ ممنوعات أو مسموحات ـ واتهم الثانى بأنه حمار ٠ تحولت حركتى الدائرية على قمة البرج الى حركة راقصـة وكنت محتفظا بتوازنى الى اعلى درجة ٠ ورغم انى كنت مبتسما فقد كان يؤرقنى شـعور بالخوف من المستقبل ،

اذ كيف أستمر معتليا البرج حتى نهاية الأجل ، بينما المدد لا يكفى والفائت لا يستعوض ، والآتى لن يحتمل ؟ ٠٠

صحت مناديا عابرى الطريق لعلى ألتمس منهم بعض الأمان٠ كانوا يقفون على أبراجهم ٠٠ يتصايحون بردود ممتعة :

ــ دعنـا لحالنـا ٠

ــ كن فى شـأنك ٠

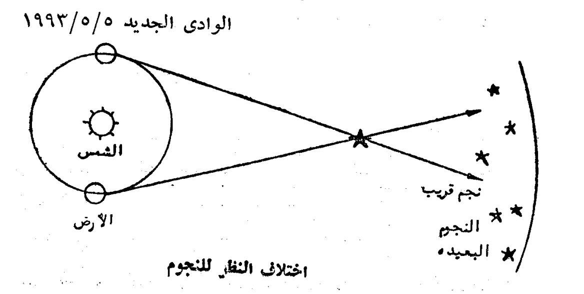
ــ كـن مـع الله ٠

ــ نحن الذين بحاجة الى عونك ٠

أسعدنى الرد الأخير وبدأت حدة شعورى بالخوف من المستقبل تخف تدريجيا ٠ ولـما ازدادت ثقتى بنفسى بدأت أخلع ملابسى قطعة وراء الأخرى والقى بهـا الى الشـارع دون أن أتوقف لحظـة عن الرقص ٠٠ بينما تعالت أصوات التهليل والتكبير من أسـفل الى أعـلى ٠

* * *

الوادى الجديد ١٩٩٣/٥/٥



اختلاف النظر للنجوم

حـــالة طارئـــة

يا محمـد يا فـرااااااج .. يا فـراااااااج ...

لمحته يعبر الشارع وسط مجموعة من مرافقيه بعد أن غادروا عرباتهم الأنيقة . كانوا متجهين ناحية أحد المبانى الباريسية الضخمة . جسده العمـلاق يشغل الحيز الأكبر من حجم البقعة التى يتحرك عليها وما يحيط بها من مكان وزمان .

صرخت أناديه بأعلى صـوتى وانا الذى لم اره منذ عـدة سنوات ، وكأنه كان يعبر هذا الشارع خصيصا ـ وقد أعطـانى ظهره العريض ـ حتى اتمكن من رؤيته فأستنجد به وهو لا يكاد يذكرنى ولو بنظرة استطلاع عابرة .

التفت الفرنسيون يتأملوننى وهم فى دهشة من لغتى الغريبة ومن الضجيج الذى أحدثتـه صيحتى المفاجئـة فلوثت أسـماعهم الرهيفة . بدا عليهم التأفف من مشاركتى اياهم عبور الشـارع وخروجى على منظومة الصمت المطبق والوجوم المشبوه .

لمـاذا لا تلتفت يا فرج لترى من يناديك ؟ .. الأنك صرت من

أصحاب المؤسسات الديناصورية الكبرى الذين لا يفكرون الا بمنطق الابتلاع ؟ ٠٠ لابد أنك نسيت زمالتنا فى مدرسة رأس التين الثانوية حين كنت اسخر من طولك الزائد وطبعك الذى لم يختلف فى شيء عن طبع الأطفـال ٠ ما كان اسـهل أن تندهش وتتعجب فى براءة لأى شيء ، وأن تصـدق أكاذيبى المفتعلة حتى أستجلب عليك ضحك الزملاء وتندرهم ٠ كنت أسخر من راسك الصغير المحمول على جسدك الجبـار ٠ لم اكن أعرف أنهـا تحوى كل ذلك القـدر من الذكاء والحكمـــة ٠

لكن شيئا خفيا فى صدرك ــ يكاد ينطق به لسانك وتشى به مواقفك ــ كان يشـدنى دوما اليك بخيوط غير مرئيـة من حرير فولاذى ٠ لقد كنت أنظر اليك ــ وأنت زميلى بنفس الفصـل ــ نظرتى الى كائن غير ارضى معظم جسـده قلب ، تحف به الملائـكة اينمـا كان ٠

ويفرق بيننا الزمان كشأنه بين الناس ، ولكنى لا أنساك ابدا٠ لست أدرى لمـاذا أتذكرك كلما مررت بمحنة اذ يداهمنى الحنين اليك واسأل عنك فى مصر فلا أجدك ٠ يقول البعض أنك فى الكويت ، ويقول آخرون أنك فى لندن أو فى السعودية ، ويؤكد البعض أنك فى أمريكا أو كندا ، فلا أعثر لك على أثر ٠٠ وأنساك لأعود فأذكرك ٠

لمـاذا لا تمد الى يدك ؟ ٠٠ ألسنا اخوة فى الله كمـا علمـك أستاذنا الشيخ عبد العظيم الضرير فى نفس المدرسة ؟ ٠٠

* * *

قالت لى فى برود كالموت :

ــ لا تنزعج فانهـا حـالة طارئـة لا تلبث ان تزول بعد أيام أو اسابيع قليلة ٠

فلم أقل لها شيئا ، وانما تعجبت لماذا لا يحدث لى هذا مع الأخرى • انها على النقيض تسالنى فى دهشة ملتهبة :

ـ الا تتعب ؟ •• ألا تشبع من الحب أبدا ؟؟؟

فارتوى وانتشى وأتعدد وأنام واشخر يا فرج •• وحين أصحو يقتلنى الندم ، فما كنت أتصور يوما أن أهين نفسى واهبط بها الى مدارك الفسق والفجور ، فالأولى حلال والثانية حرام ، ولكنى بشر يا فرج • الأولى أحببتها وتزوجتها ، والثانية احبتنى فخذلتها •

***

لماذا لا تتوقف لتستمع الى كلمات اخيك ؟ •• اننى غير راض عن نفسى • ألومها • أعنفها • ازجرها •• فمتى تسمعنى قبل أن تبتلعك أبواب مؤسستك الكبرى فيخيب آخر آمالى فى الحب رغم انى عولت عليه كثيرا •

انطلقت فى أثره مسرعا حتى اقتربت منه • جوقة المستفيدين تحاصره • تصب فى سمعه كلمات عالية التداول منذ الأزل • لا تسرفوا فى نفاقكم يا حضرات السادة فأنتم لا تعرفون فرج مثلما أعرفه • انكم تهمسون فى أذن رجل أعمال كبير • هذا صحيح • لكن اسألونى أنا عن عقله ، بل اسألونى عن قلبه •

منذ سنوات عديدة وجدته فى مصر • كنت متعثرا فى كل شىء فأقالنى من عثراتى وشد من أزرى • حاصر أعدائى وفتح لى بابا للرزق لم أكن أحلم به • تعجبت لفطنته وحسن تصرفه أكثر مما تعجبت من نفوذه وسطوته على كبار القوم وأصحاب الكلمة

العليا ، لكنى لم افهم السبب جيدا ، وما أن سافر حتى تآمروا على، وعدت الى حيث كنت من جديد ٠ حينئذ قال لى أحدهم :

ــ يابنى لا تتعب نفسك ٠ ابتعد فالتيار قوى عليك ٠

ــ أريد ان أعيش ٠

ــ هذا كلام انشائى ٠ العب على قدرك فقط ٠

يومها تساءلت ما هو قدرى ومن الذى يقرره وما هى حدوده وكيف تكون تلك الحدود ولماذا ؟ ٠٠ وهل يمكن أن يتغير هذا القدر بين يوم وليلة ، ومن هو صاحب القرار النهائى فى هذا كله ؟٠٠

أعيانى التساؤل وكنت أرى الناس يمشون فى الشوارع والأزقة ويسكنون الخيام والقصور وأرى النساء يلدن الاناث والذكور ، والشمس تشرق من الشرق وتغرب فى الغرب ، والناجحون يأخذ بهم الكبر والعجب واصحاب الجاه يتيهون بأقدارهم وأنا أبول فى قدرى ويحترق صدرى وتزهق أنفاسى ، ولكنى حين أذكرك يسرى الأمل فى روحى وأواصل الصمود ٠٠ لست أدرى لماذا والى متى ؟ ٠٠ أجبنى يا محمد ٠٠ يقينى أننى أتعقب المستحيل ولكنى لا أستطيع ولا أملك أن أتوقف ٠

توقف وامنحنى من رحابة صدرك ما يتسع لهمى ووجدى ولهفتى ٠ أنا لم أذنب فى حقك بالقدر الذى يجعلك تتجاهلنى هكذا ٠ قد أكون نسيتك طيلة أعوام مضت فلم اذكرك الا عند الحاجة ، ولكن معذرة يا أخى فما أنت الا بشر مثلى تأكل وتشرب وتخرج وتجامع وتنام لفترة طالت او قصرت ثم تموت ٠ صحيح انك من علية القوم وأنا من أسافلهم ولكن مصيرك هو مصيرى ٠ عنده نتساوى تماما ٠ الطريق اليه فقط هو الذى يفرق بيننا ،

وانت مدرك لهـذا . لكنى بحاجـة اليك . يا محمد . يا محمد يا فراااااااج .. يا فرج .

صورت لى سذاجتى أن الجـأ يوما الى صديق غيرك ، طالمـا كنت له العو نوالسند . جلست امامه لا لأسأله رد الجميل وانما لأسأله المشورة . قال لى بابتسامة مخزية :

ـ آسـف .

خشى أن أورطه معى . تحسب للموقف والتزم الحـذر واخذ بالأحوط . قلت له :

ـ ولكنى جئت ....

قاطعنى خشية ان أعيره بافضالى ـ ولم يكن هذا واردا ـ يعلم الله ذلك ـ وراح يثرثر بغباء حول اشياء هلامية كمصاعب الحياة وضيق الرزق والوقت والمكان والزمان . تركته وانصرفت آسـفا وتذكرت مقولة سيدنا على بن ابى طالب « آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » .. ثم تذكرتك يا فرج .

والآن ناطق . تـكلم . انـا صـديقك يوسـف منصـور . الا تعرفنى ؟ .. هل يعقل هذا ؟ .. نظر الى متفحصـا هيئتى بعينين بريئتين وقال فى أدب جم :

ـ معذرة يا اخى . انا لست أذكرك .

قلت له أنا يوسف . أنا الذى وانا الذى وأنت الذى .... ذكرته حين كنا وحين ذهبنا وحين جئنا . حدثته عن الأيام الخوالى وعن بسمة الزمن الغابر قبل أن تستحيل الى عبوس . ابتسـم فى وجهى وكرر قوله :

ـ لكنى لست أعرفك .

التف الزبانية من حولى ومنهم بعض حراسه . حاولوا ابعادى عنه بالقوة فمنعهم . صمت قليلا ثم قال بطيبته المعهودة :

ـ على اية حـال أنـا فى خدمتـك . أنت مصرى . أليس كـذلك ؟

ـ طبعا . أهذا سؤال يا محمد ؟

انصبت نظراتهم كسـهام نارية فى وجهى لوقاحتى وتطاولى على سيدهم ، اذ أناديه باسمه مجردا دون ألقاب . سألنى بحنـان أبـوى :

ـ ماذا تريد بالتحديد ؟

تسمرت أمامه فى الأرض وتشعب الجـذر الى عمق بعيد . بذلت أقصى ما لدى من جهد حتى استطعت انتزاعه من الأرض وكان ثقيلا للغاية . لم أر فى حياتى ثمرة جذرية بهذا الحجم .. ووجدت نفسى اقود عربة مسروقـة وأجرى بها فى شـوارع باريس لأجد نفسى فى النهاية واقفا بميدان رمسيس فى القاهرة ومعى الثمرة . كانت السماء حمراء والأرض غير ممهدة والناس يهرولون ويتصادمون فى كل الاتجاهات وفرج لا يعرفنى . يقف بعيدا تغمره سكينة يحسده عليها الملوك والقياصرة . لم أستطع اجابته عن سـؤاله المحدد فعاود سؤالى دون أن ينفد صبره .

ـ حسنا . ما الذى جاء بك الى فرنسا ؟ .. بعثة أم عمل أم نزهـة ؟

اى نزهة يا صـديقى الذى ينكرنى وأنا العاجز عن التنزه حتى فى بلادى ؟ . هل تصـدقنى لو قلت لك اننى على استعداد الأن أجوب الدنيا بحثا عنك يا ذا العطر الجميل ؟

ـ هه ؟ .. لمـاذا جئت الى هنا يا يوسف ؟

ظللت أكلمك سنينا وأنت لا تسمعنى ، والناس يظنون انى أكلمهم . ولمـا غمرت فى شـوقى اليك سبحت فى موجه وعبرت البحار والمحيطات وأنا لا أملك القارب ولا الشراع ولا المجداف .

ـ ما جئت الا لأحظى برؤياك .

❋ ❋ ❋

الفهـــرس

الصفحة

صدر من هــذه السلسلة

● الرجـل المناسـب	(قصص)	فتحى غـانم	١
● دموع رجـل تافه	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	أبو المعاطم أبو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصص)	بهـاء طـاهر	٤
● رباعيـــات	(قصص)	شـكرى عيـاد	٥
● من قتل الطفـل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمـال الغيطـانى	٧
● رشــق الســكين	(اقاصيص)	محمـد المخـزنجى	٨
● وعلى الأرض السلام	(قصص)	فـاروق خورشـيد	٩
● الأشـواق والأسى	(روايـة)	عبد الحكيم قاسـم	١٠
● البحر ليس بمـلان	(روايـة)	جميل عطية ابراهيم	١١
● أن تنحـدر الشمس	(قصص)	سـحر توفيـق	١٢
● لا تسـقنى وحـدى	(روايـة)	سـعد مـكاوى	١٣
● كهف الأخيـار	(قصص)	شـكرى عيـاد	١٤
● محطة السكة الحديد	(قصص)	ادوار الخـراط	١٥
● حصـار القلعـة	(م شعرية)	محمد ابراهيم أبو سنة	١٦
● سـارق الكحـل	(قصص)	يحيـى حقـى	١٧

● أربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٨
● أنا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
● الوداع : تاج من المشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(أقاصيص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار	٢٨
● تسلق الجدار الأملس	(رواية)	حسنى عبد الفضيل	٢٩
● احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسى قنديل	٣٠
● رحلة الليل	(قصص)	عبد الله خيرت	٣١
● حبات النفتالين	(رواية)	عالية ممدوح	٣٢
● أرض لا تنبت الزهور	(مسرحية)	محمود دياب	٣٣
● الخوف	(قصص)	عبد الفتاح الجمل	٣٤
● ما أجملنا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن	٣٥
● لم يعد الضحك ممكنا	(قصص)	يوسف القعيد	٣٦
● جبال السام	(قصص)	فاروق خورشيد	٣٧
● الحنان الصيفى	(قصص)	احمد الشيخ	٣٨

● يوسف والرداء (قصص) ابراهيم اصلان ٣٩
● مسالة لبنى (مسرحية) يحيى عبد الله ٤٠
● عكس الريح (قصص) يوسف ابو رية ٤١
● هل (قصص) محمد جبريل ٤٢
● عفاريت الجبانة (مسرحية) نعمان عاشور ٤٣
● الطائر والنهر (قصص) عائد خصباك ٤٤
● زهر الليمون (قصص) علاء الديب ٤٥
● الطواحين (قصص) امين ريان ٤٦
● رائحة البحر (رواية) سامى فريد ٤٧
● حضرة صاحب الدولة (مسرحية) عاطف الغمرى ٤٨
● اسباب للكى بالنار (قصص) خيرى شلبى ٤٩
● السين والطلسم (قصص شعرى) بدر الديب ٥٠
● أيام الانسان السبعة (رواية) عبد الحكيم قاسم ٥١
● الملاك الأبيض (قصص) محمد زفزاف ٥٢
● هذا ما كان (قصص) محمد البساطى ٥٣
● الغرف الأخرى (رواية) جبرا ابراهيم جبرا ٥٤
● اغنية حب حزينة (قصص) طلعت فهمى ٥٥
● انكسار الحروف (قصص) ربيع الصبروت ٥٦
● اخبار الدراويش (رواية) عبد الوهات الأسوانى ٥٧
● النيل والغضب (قصص) فتحى عبد الفتاح ٥٨
● الشىء (رواية) نهاد شريف ٥٩

- الفيوم ومنابت الشجر (رواية) عبد العزيز مشرى ٦٠
- الصخرة والطوف (مسرحيات) فؤاد التكرلى ٦١
- نورسان ابيفسان (قصص) نعيم عطية ٦٢
- سترة العورة (قصص) سعيد الكفراوى ٦٣
- الوجه الآخر للقمر (قصص) محمد سليمان ٦٤
- سفر (قصص) محمد المخزنجى ٦٥
- رجال من الرف العالى (قصص) سليمان الشطى ٦٦
- رايت النخل (قصص) رضوى عاشور ٦٧
- ليلة حب مجنونة (قصص) ليلى العثمان ٦٨
- المستحيل والقيمة (تجربة فى الديالتيك) بدر الديب ٦٩
- النعيم العائم (مسرحية) توفيق الحكيم ٧٠
- شمس بيضاء (قصص) محمد عبد السلام العمرى ٧١
- ديوان الملحقات (قصص) عبد الحكيم قاسم ٧٢
- شتاء داخلى (قصص) أحمد زغلول الشيطى ٧٣
- حكاية شارعنا (رواية) وجيه الشربتلى ٧٤
- أذعان صغيرة (قصص) فهد العتيق ٧٥
- منحنى النهر (قصص) محمد البساطى ٧٦
- العشق أوله القرى (قصص) ابراهيم فهمى ٧٧
- أغلاق النوافذ (قصص) ابراهيم عبد المجيد ٧٨
- أجنحة الحصان (قصص) هالة البدرى ٧٩
- وش الفجر (قصص) يوسف أبو رية ٨٠

- حكى القرايا وحكى السرايا (مسرحية) ممدوح عدوان ٨١
- من دفتر العشق والغربة (قصص) جمال الفيطانى ٨٢
- البحر الرمادى (قصص) احمد الشيخ ٨٣
- بستان الأزبكية (قصص) محمد عبد السلام العمرى ٨٤
- لحس العتب (رواية) خيرى شلبى ٨٥
- احاديث جانبية (قصص) جميل عطية ابراهيم ٨٦
- رجل فى القلعة (مسرحية) محمد أبو العلا السلامونى ٨٧
- مجرى العيون (قصص) سعيد الكفراوى ٨٨
- الكرز (قصص) ليلى الشربينى ٨٩
- ساعات الكبرياء (قصص) ادوار الخراط ٩٠
- سالومى (مسرحية) محمد سلماوى ٩١
- غزو الارانب (قصص) نبيل عبد الحميد ٩٢
- أم الشعور (قصص) حسام فخر ٩٣
- العودة من داخل الرأس (قصص) عبد الفتاح رزق ٩٤
- بحيرة المساء (قصص) ابراهيم أصلان ٩٥
- قراءة فى جريدة الصباح (قصص) محمد سليمان ٩٦
- قبلة الريح (رواية) نعيم عطية ٩٧
- الفارس (م. شعرية) أحمد سويلم ٩٨
- بقايا العمر (قصص) فتحى أبو رفيعة ٩٩
- الزائر (مسرحية) أحمد الحوتى ١٠٠
- شدو البلابل والكبرياء (قصص) فؤاد قنديل ١٠١
- كوبرى التاريخ (قصص) محمد محمود عبد الرازق ١٠٢
- فى الظل والشمس (قصص) محمود الوردانى ١٠٣
- طقوس بشرية (قصص) رضا البهات ١٠٤

- دولـة ايـوب (م. شعرية) محمد حسب القاضى ١٢٩
- حـيرة الفرعـون (قصص) عبد المنعم عبد القادر ١٣٠
- نونـة الشعنونـة (قصص) سـلوى بـكر ١٣١
- اظافر صغيرة جدا (قصص) فهـد العتيـق ١٣٢
- وهذا ما جرى للزرافة (قصص) صـلاح عبد السـيد ١٣٣
- الأيـام السـعيدة (قصص) نعيـم عطيـة ١٣٤

الأعـداد القادمـة :

- عقيـلة (م. شعرية) بيرم التونسى

الأعداد الممتازة القادمة :

- المعذبون فى الأرض (روايـة) طـه حسـين
- قنطرة الذى كفر (روايـة) مصـطفى مشرفـة
- خيـوط العنـكبوت (روايـة) ابراهيم عبد القادر المـازنى
- ابراهيـم الثـانى (روايـة) ابراهيم عبد القادر المـازنى
- نـائب عزرائيـل (روايـة) يوسـف السـباعى
- فسـاد الأمكنـة (روايـة) صـبرى موسى
- قصص مختـارة (قصص) يوسـف ادريس
- أغنية الرياح الأربع (دراما شعرية) على محمـود طه
- أضـلاع الصـحراء (قصص) ادوار الخـراط

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- باعة الصحف ● مكتبات الهيئة
- معارض الكتاب بداخل مصر والخارج
- المعرض الدائم للكتاب
- مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والاقاليم

رقم الايداع ٢٠٠٢/٤٠٧٦

الترقيم الدولى I:S:B:N: 977 — 01 — 7738 — 5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة